منشورات المعهد العالي الإسلامي بحيدرآباد - الهند
وفريق البحث في السنن الإلهية

السنن الإلهية الكونية والاجتماعية

مقدمات ومفاهيم وأصول

أ.د. رشيد كهوس
أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان
جامعة عبد المالك السعدي - المغرب

السنن الإلهية الكونية والاجتماعية:
مقدمات ومفاهيم وأصول

تأليف:

الأستاذ الدكتور رشيد كهُوس

أستاذ بكلية أصول الدين بتطوان–جامعة عبد المالك السعدي–المغرب

الناشر: المعهد العالي الإسلامي بحيدرآباد–الهند

وفريق البحث في السنن الإلهية –كلية أصول الدين بتطوان–المغرب.

المؤلف: أ.د.رشيد مُحَمَّد كهوس.

الطبعة الأولى: **1444هـ/2023م**.

رقم الإيداع القانوني:

2022MO3288

الترقيم الدولي للكتاب (ردمك –**ISBN**):

978-9920-9122-3-5

حقوق الطبع محفوظة.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (138)﴾[آل عمران].

إهداء:

إلى طلاب العلم في كل مكان وإلى آخر الزمان.

هذا الكتاب:

أصل هذا الكتاب محاضرات جامعية قدمتها لطلاب الفصل السادس من "مسلك الفكر الإسلامي والفلسفة وعلوم الأديان" بكلية أصول الدين بتطوان–جامعة عبد المالك السعدي–المغرب.

تقديم

الحمد لله الذي خلق المكوَّنات بقدرته، وأبدع الكون بحكمته، أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، جعل للكون والحياة سننا وشرع لعباده من الأحكام ما يكون لهم ذخرا وسندا، وأشهد أن لا إله سواه، ولا معبود علاه، جل عن الشركاء والأنداد، وتقدس عن الصاحبة والأولاد، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا ومولانا محمدا عبده المصطفى ونبيه المجتبى أرسله بالحق اليقين والحجة الباقية إلى يوم الدين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن السنن الإلهية هي الميزان الذي نحكم به على سائر الأمور، والمقاس الذي نقيس به كافة الأحوال، وهي الفلسفة التصورية للكون والحياة، الناظمة للعلاقات بين مختلف التجمعات البشرية والأنساق الحضارية، وهي مفاتيح لفهم تدفق الحياة والوجود وحركة التاريخ وتشكُّل المصائر... لذلك توقف صلاح المجتمعات البشرية وفلاحها ونحوضها وسقوطها على مدى اهتدائها بهدايات السنن، وامتثالها بأحكامها، وعملها بمقتضياتها، والسير في طريقها المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء.

ذلك بأن السنن الإلهية تحكم كل ما في الكون، سواء الكون المادي الطبيعي؛ أي الكواكب والأجرام والذرات والمجرات... أو الكون الاجتماعي البشري؛ كالنفس الإنسانية والسلوك الاجتماعي وقيام الأمم وسقوطها، ومصداق ذلك قوله جل وعلا: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمواتِ والأرضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وإليهِ يُرْجَعون﴾ (آل عمران: 83)، فإن كل ما في هذا الوجود خاضع لسنن الله تعالى دون استثناء، وكما أن الماء يطفئ النار، والحديد يتمدد بالحرارة ويتقلص بالبرودة، ورمي الحَجَر في الفضاء يجعله يسقط إلى الأرض بفعل الجاذبية.... وكل هذه سنن مادية معروفة.. هنالك أيضًا ما تشمله السنن الإلهية مثل انفعالات النفس البشرية، وحياة المجتمعات، ومسيرة الحضارات، وحركة التاريخ، وغيرها من الظواهر المحكومة بسنن إلهية ثابتة ومطردة..

لكن الملاحظ على فقه السنن الإلهية (الفقه الأكبر–فقه الحياة) أنه لم ينل تلك العناية الخاصة التي نالها الفقه العملي (العبادات والمعاملات) والتفريعات الفقهية (الفقه الأصغر)، بل المتتبع بطريقة استقرائية للتجربة العلمية من العهود الأولى يجد أن الفقه العملي قد تضخم كثيرًا، وتوسعت مذاهبه وتفرعت أبوابه بشكل استقصائي زاد حتى عن الحد الطبيعي في ملاحقات كثيرة، وبالمقابل لا نجد لفقه عظيم كفقه السنن الإلهية أي جهد واضح يذكر لعلمائنا بالرغم من علو كعبهم في الفهم والمدارسة والاستقصاء...

والحاصل أنه في ظل سقطة الأمة وتخلفها وانتكاسها وضعفها إبّان الاحتلال الأجنبي لأراضيها بدأت إرهاصات التنبيه على هذا العلم في وقت متأخر جدًا –في القرن العشرين الميلادي– على يد ثلة من جلة

علماء الأمة ومفكريها... لكنه يمثل بداية صحوة للعناية به، وتوجيه الأنظار إليه بما يتناسب ومكانته وأهميته في حياة الأمة..

هذا وقد تكفل الوحي (قرآنا وسنة) بتقديم بناء متكامل للمنظومة السننية التي تحقق الرقي الروحي والعقلي والأخلاقي والاجتماعي للإنسان –فردا وجماعة وأمة وحضارة–، وترقى به إلى مرتبة الإنسان الصالح الذي يكثر خيره ونفعه.

هذا والأمة لا يستقيم حالها، إلا إذا فهمت هذه السنن الإلهية، وانسجمت حياتها وتكيفت معها. ومتى أعرضت عنها وتنكبت هديها جهلا أو غفلة أو تهاونا أو عنادا واستكبارا؛ فإنها حتما ستواجه مصير أمثالها، وتلاقي جزاءها دون تخلف أو محاباة.

وهنا من الأهمية بمكان القول أن السنن الإلهية تشمل عند الإطلاق: سنن الله في الكون المادي (السنن الكونية أو الطبيعية أو سنن الآفاق)، وسنن الله في الإنسان[1] –(السنن النفسية والاجتماعية أو الإنسانية)– بالنظر إليه فردا ونفسا، وبالنظر إليه مجتمَعًا وأمة..

وهذا ما سنفصل فيه في صفحات هذا المقرر مبينين مفهوم السنن الإلهية الكونية والاجتماعية والفروق بينها، وخصائصها، وآثار رعايتها، ودواعي الاهتمام بها، وأهميتها في تقديم تفسير صحيح لأحداث التاريخ والظواهر الاجتماعية، ثم بداية العناية بها تطبيقا ووعيا وتصنيفا.

---

[1] الإنسان باعتباره جزءا من الكون يخضع من جهة لسنن عامة –(السنن الكونية)– تجري عليه كما تجري على جميع المكوّنات الأخرى، فخَلقه والأطوار التي يمر بها في بطن أمه والأطوار التي يمر بها في حياته حتى مماته يخضع للسنن الكونية. وباعتباره إنسانا مكلفا دون غيره يخضع من جهة أخرى لسنن خاصة به (السنن الإنسانية أو الاجتماعية) تشمل تصرفاته وأفعاله وسلوكه في الحياة وما يكون عليه من أحوال وما يترتب عليه من نتائج. كالسعة في الرزق وضيقه، والسعادة والشقاء، والقوة والضعف، والنهوض والسقوط، والرقي والتأخر، والعز والذل، والنصر والهزيمة، والعافية والابتلاء، وكل ما يصيبه في الدنيا والآخرة من عذاب أو نعيم، ومن فلاح أو خسران.

المحور الأول
مفهوم السنن الاجتماعية والكونية والعلاقة بينها

أولا: تعريف السنن الإلهية.

1- السنة لغة.

للفظة السنة دلالات ومعاني في سياقاتها المختلفة:

السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم سننت الماء على وجهي أسنه سنا، إذا أرسلته إرسالا. وامْضِ على سَنَنِك أي وَجْهك وقَصْدك. وسَنّ اللهُ على يدي فلان قضاء حاجتي: أجراه. والسنة: الطريقة والسيرة، حميدة كانت أو ذميمة [1].

ومن التعريفات السابقة نستطيع القول: إن معنى السنة في اللغة يدل على الطريقة والسيرة والوجهة والقصد والتوالي والتتابع والاطراد وجريان الشيء أو الحكم على طريقة واحدة معتادة.

أما معنى سنة الله في اللغة فهي: "أَحكامه وأَمره وَنَهْيُهُ.."[2]. قال العلامة الراغب الأصفهاني(ت: 502هـ)-رحمه الله-: "سنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حِكمته، وطريقة طاعته"[3].

وخلاصة القول: سنة الله طريقة حكمته في مجازاته لخلقه التي تجري على نسق واحد منذ بدء الخليقة إلى يوم القيامة، وطريقة طاعة الخلق له بما شرعه من أوامر ونواه.

2- مصطلح "السنة" في القرآن الكريم.

أنزل الله تعالى وتقدس القرآن الكريم بلسان عربي مبين، وكان معجزة خالدة على مر الأزمان والعصور، أعجز الفصحاء والشعراء والأدباء، وبهذا فإن ألفاظه لا تخرج عن معانيها في اللغة العربية إلا بقرينة، فلفظ السنة في القرآن الكريم أُطلق على ما هو عليه في لغة العرب، أي "الطريقة والخطة المتبعة"[4]، وسنة الرسل: "هي الشرائع الإلهية المنزلة لهداية الأمم"[5]، والسُّنن جمع سنة، وسنة الله: "ما جرى به نظامه تعالى في خلقه"[6].

---

(1) لسان العرب، لابن منظور، مادة (سنن)، 13/225-226. مختار الصحاح، لأبي بكر الرازي، مادة (سنن)، ص143. المصباح المنير، لأحمد الفيومي المقرئ، مادة (سنن)، ص152. معجم مقاييس اللغة، لابن فاس، مادة: سن، 3/60. أساس البلاغة، للزمخشري، حرف السين مادة (سن)، ص418.

(2) لسان العرب، لابن منظور، مادة (سنن)، 13/225.

(3) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، مادة (سنن)، ص429. بصائر ذوي التمييز من لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، مادة:(بصيرة السنن)، 3/267.

(4) معجم ألفاظ القرآن الكريم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مادة (سنن)، 1/624.

(5) موسوعة الألفاظ القرآنية، مختار فوزي النَّعال، مادة: (السنة)، ص413.

(6) القاموس القويم في القرآن الكريم، إبراهيم أحمد عبد الفتاح، 1/331.

وقد وردت كلمة السنة في القرآن الكريم بجميع صيغها ست عشرة مرة: بصيغة "سنة" المفرد ثلاث عشرة مرة، بصيغة الجمع (سنن) مرتين، بصيغة "سنتنا" مرة واحدة[1]. وهي كالآتي:

- ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ **سُنَّةَ اللَّهِ** فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (الأحزاب: 38).
- ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ** فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ **لِسُنَّةِ اللَّهِ** تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: 62).
- ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ** الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ **لِسُنَّةِ اللَّهِ** تَبْدِيلًا﴾ (الفتح: 23).
- ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ **سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ**﴾ (الأنفال: 38).
- ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا **سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ** فَلَنْ تَجِدَ **لِسُنَّتِ اللَّهِ** تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ **لِسُنَّتِ اللَّهِ** تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: 43).
- ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا **سُنَّتَ اللَّهِ** الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر: 85).
- ﴿**سُنَّةَ** مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ **لِسُنَّتِنَا** تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء: 77).
- ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ **سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ** أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (الكهف: 55).
- ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ **سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ**﴾ (الحجر: 13).
- ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ **سُنَنٌ** فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: 137).
- ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ **سُنَنَ** الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء: 26).

وباستقراء كل هذه الآيات الكريمة[2] يتضح لنا أن المراد بالسنة في سياق هذه الآيات:

- سنة الأنبياء والمرسلين السابقين وشرائعهم وطرائقهم في الأوامر والنواهي، والتحليل والتحريم...
- سنة الله في عقاب الأمم الكافرة وإهلاكها، ونصر عباده المؤمنين الصالحين المصلحين من الأنبياء والرسل والأولياء وتأييده لهم والتمكين لهم..

---

[1] انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص451.

[2] تلك الآيات الكريمة جاءت في سياق واحد هو السياق الاجتماعي. أما السنن الكونية فقد عبر عنها القرآن الكريم بالآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: 164).

والسنن في القرآن الكريم لا تقتصر على السنن الاجتماعية - السنن التي تحكم سلوك الإنسان- فقط، رغم إيهام الاستقراء بذلك، بل هو اقتصار مقصود، حكمته التنبيه على السنن الاجتماعية ولفت الأنظار إليها وكونها أيضا لازمة مثل السنن الكونية.

فالسنن إذن وردت في القرآن الكريم في سياق الحديث السنن الإنسانية (الاجتماعية)، لكنها تبقى عامة تشمل سنن الطبيعة (الكون) التي لم يسمها القرآن سنة، لكنه أشار إليها طويلا ودعا إلى الكشف عنها عبر النظر في الكتاب المفتوح (الكون) والسير في الأرض الذي عادة ما يرافق إيراد "لفظ" السنة في القرآن.

وللوقوف على فوائد أخرى في كتب التفسير أذكر بعض تعريفات المفسرين للسنة:

- الإمام أبو بكر الجصاص (ت: 370هـ)-رحمه الله-: سنة الله هي: "الطريقة المأمور بلزومها واتباعها"[1].

- الشيخ أبو علي الطبرسي (ت: 502هـ)–رحمه الله-: "السنة: الطريقة المجعولة ليقتدى بها. ومن ذلك سنة رسول الله ﷺ" [2].

- الإمام القرطبي (ت: 671هـ)-رحمه الله-: "سنة الله: يعني طريقة الله وعادته"[3].

- الإمام ابن كثير (ت: 774هـ)-رحمه الله-: سنة الله: "عادته[4] في خلقه"[5].

- الإمام أحمد بن عجيبة (ت: 1224هـ)-رحمه الله-: "السنن: الطرق المسلوكة" [6].

- العلامة محمد بن أحمد أبو زهرة (ت: 1394هـ)-رحمه الله-: "إن الكون يسير على سنة الله وعلى نواميس محكمة يدبرها منشئ الكون وخالقه، والقيوم عليه بحكمته وإرادته المختارة، فهو الفعَّال لما يريد"[7].

- العلامة محمد المكي الناصري (ت: 1414هـ)-رحمه الله-: السنن الإلهية والنواميس الكونية هي: "التي يسير الكون بمقتضاها سيرا محكما منظما"[8].

- الشيخ الشعراوي (ت: 1418هـ)–رحمه الله-: "السنن هي الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون؛ ليضمن للإنسان –السيد في هذا الكون- ما يحقق مصلحته. ومصلحة الإنسان تتمثل في أن يسود الحق في حياة الإنسان المختار كما ساد الحق في الكون المسيّر قبل الإنسان"[9].

وكل التعريفات السابقة متقاربة، تجمع على أن سنة الله هي: طريقته وحكمته وتدبيره لهذا الكون وما فيه.

3- معنى السنن الإلهية في الفكر الإسلامي.

إن سنن الله تعالى جاءت تفك لغز الكون ومغزاه، وتكشف الغبش واللبس، وتحل المعضلات التي عجزت المدارس المادية الوضعية عن حلها؛ إنها بكل بساطة معايير ثابتة الجذور، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تتحقق بإذن ربها وقدره ومشيئته. فهي بناء مرصوص، لا تزعزعه العواصف ولا القواصم. ولن تجد لسنة الله تبديلا ولا تحويلا ولا تغييرا.

لنقف مليا عند بعض التعريفات المختلفة للسنن الإلهية:

---

[1] أحكام القرآن، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي، 487/3.

[2] مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل الطبرسي، م2/ج205/4.

[3] الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، 280/16.

[4] العادة كما جاء في كتاب التعريفات هي:" ما استمر الناس عليه على حكم المعقول وعادوا إليه مرة بعد أخرى"(التعريفات، للجرجاني، ص149). وبناء عليه؛ فتعريف سنة الله بكونها "عادته في خلقه" فيه نظر، لأن استخدام مصطلح (العادة) في حق الأفعال الإلهية ألصق بالأفعال الخاصة بالبشر كما رأينا في التعريف السابق للعادة.

[5] عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، اختصار: أحمد محمد شاكر، 326/3.

[6] البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن عجيبة، 375/1.

[7] زهرة التفاسير، 2906/6.

[8] التيسير في أحاديث التفسير، 107/4.

[9] تفسير الشعراوي، 1763/3.

– الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله–: "سننه سبحانه وتعالى: عادته المعلومة"[1].

الإمام النورسي –رحمه الله–: "القوانين الإلهية الجارية في العالم التي تبين تنظيم الأفعال الإلهية ونظامها، وتُنظِّم شؤون الكون.. وهي تجلّ كلي للأمر الإلهي والإرادة الإلهية"[2].

– الشيخ محمد عبده –رحمه الله– هي: "الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حَسَبِهَا تكون الآثار، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنها قوم بالقوانين" [3].

– الأستاذ محمد جابري: "إنها جملة المواثيق والعهود التي عهد الله بها لكل شيء في هذا الوجود. أو بعبارة أصح هي كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، أو بعبارة أدق فالسنن هي أفعال الله تعالى"[4].

– الدكتور عبد الكريم زيدان: "هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"[5].

– الدكتور شريف الخطيب: "السنن الإلهية منهج الله في تسيير الكون وعمارته وحكمه، ونواميسه في سير الحياة الإنسانية، ونواميسه في إثابة الطائعين وعقاب المخالفين طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله"[6].

– الدكتور أحمد كنعان: "هي مجموعة القوانين التي سنها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها"[7].

– الأستاذ محمد هيشور: "القوانين التي يسير وفقها الوجود كله، وتتحرك بمقتضاها الحياة. وتحكم جزئياتها ومفرداتها فلا يشذ عنها مخلوق وما في الكون ذرة أو حركة إلا ولها قانون وسنة"[8].

– الدكتور بكار جاسم: "السنة هي حكم الله المطرد في المكوَّنات.

ذلك أن القول بـ"حكم الله" تأكيد لمرجعية السنة فهي تجري بحكم الله وأمره، وليست بحكم الطبيعة أو المجتمع أو الأنفس، فالفعل الحقيقي هو "الله تعالى".

والقول "بالمطرد" أي: التتابع في جريان الحكم، والاطراد لا يعني الإلزام والجبر؛ بل مجرد التتابع، إذ لا مُلْزِم لحكم الله تعالى"

والقول "في المكونات" شامل للأنفس والمجتمع والطبيعة، فهذه كلها مكوَّنة بقوله: ((كن))"[9].

---

[1] شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لشمس الدين أبي عبد الله ابن قيم الجوزية، ص408.

[2] انظر: الملاحق، ص68. اللمعات، ص:59-65-86-344. صيقل الإسلام، ص463.

[3] انظر: "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية"، محمد عبده، مجلة المنار، 16 جمادى الآخرة 1320هـ، المجلد الخامس.

[4] انظر كتبه الآتية: التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين، ص66 و ص81. والدراسات المستقبلية بين السنن الإلهية والدراسات المعاصرة، ص30. والعلوم الاحترازية والوقائية القرآنية دراسة مقارنة مع توقعات الدراسات المستقبلية لكل من فوكوياما وهتنغتون، ص27، ضمن سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم والمعارف.

[5] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص13.

[6] السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الخطيب، 5/1 بتصرف يسير.

[7] أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في خلقه، ص52.

[8] سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، ص27.

[9] سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأصيلية تطبيقية، بكار محمود الحاج جاسم، ص29.

– وعرفتها بالقول: "**سنة الله هي: إرادته الكونية، وأمره الشرعي، وفعله المطلق، وكلماته التامات، وحكمته في آفاق الكون وتسلسل التاريخ، الجارية بالعباد عبر رحلة الأعمار إلى المعاد**"[1].

خلاصة التعريفات السابقة:

مما سبق ذكره من تعريفات في معنى السنن الإلهية يمكنني أن أخرج بتعريف جامع وشامل، فأقول السنن الإلهية هي: **الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر –بناء على سلوكهم وتصرفاتهم وأفعالهم–، والنظام الذي أقام عليه الكون والحياة، والنواميس التي بثها في هذا الوجود وأخضع لها جميع مخلوقاته، وهي توصف بصفة الربانية والعموم والشمول والثبات والاطراد والحكمة والعدل والتسخير والتوازن والانتظام والنفاذ والصلاحية لكل زمان ومكان.**

ثانيا- تعريف السنن الإلهية الكونية والاجتماعية.

إنه رغم الزخم الهائل من السنن الذي يزخر به الكون إلا أننا عند إمعان النظر نجدها تنضوي تحت نوعين أساسين من السنن:

الأول: يشمل الجانب المادي من هذا الكون، وهو –بلا شك– الأوسع نطاقا، ويعرف بالسنن الكونية أو الطبيعية أو سنن الآفاق، وتعني نواميس الله سبحانه وتعالى في تسيير الكون وعمارته.

الثاني: خاص بالإنسان، وهي السنن والقواعد التي تحكم الإنسان–فردا وجماعة وأمة– في علاقته بهذا الكون وخالقه، وتسمى السنن الاجتماعية أو الإنسانية أو سنن الأنفس.

1– السنن الكونية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: 53).

﴿في الآفاق﴾ ما أخبر الله تعالى به من آياته فِي السَّمَوَات وَالْأَرضين، وَذَلِكَ من رفع السَّمَاء، وَخلق الْكَوَاكِب، ودوران الفلك، وإضاءة الشَّمْس وَالْقَمَر، وَمَا أشبه ذَلِك، وَكَذَلِكَ بسط الأَرْض، وَنصب الْجبَال، وتفجير الْأَنْهَار، وغرس الْأَشْجَار، إِلَى مَا لَا يُحْصى"[2].

قال الرازي: "إِنَّ الْمُرَادَ بِآيَاتِ الْآفَاقِ: الْآيَاتُ الْفَلَكِيَّةُ وَالْكَوْكَبِيَّةُ وَآيَاتُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآيَاتُ الْأَضْوَاءِ وَالْإِضْلَالِ وَالظُّلُمَاتِ وَآيَاتُ عَالَمِ الْعَنَاصِرِ الْأَرْبَعَةِ[3] وَآيَاتُ الْمَوَالِيدِ الثَّلَاثَةِ[4]"[5]. أي كل الآيات الموجودة في العالم الأعلى والأسفل.

---

(1) علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، منشورات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي–الإمارات العربية المتحدة، ص22.

(2) انظر: تفسير السمعاني، 61/5. وتفسير الماوردي، 189/5.

(3) يقصد بالعناصر الأربعة: الماء والأرض والنار والهواء.

(4) يقصد بالمواليد الثلاثة: المعادن والنبات والحيوان.

(5) تفسير الرازي، 573/27.

فالآية الكريمة تستوعب المستقبل كله، مستقبل مَنْ عاصر نزول القرآن، ومستقبل مَنْ يأتي بعد إلى قيام الساعة، بل مستقبل مَنْ تقوم الساعة عليه.

فالقرآن الكريم لم ينزله الله ليُفرغ كل أسراره وكل معجزاته في قَرْن واحد، ولا في أمة واحدة، ثم يستقبل القرون والأمم الأخرى دون عطاء، الله يريد للقرآن أنْ يظل جديدًا تأخذ منه كل الأمم وكل العصور، وتقف على أسراره ومعجزاته وآياته في الكون[1].

وخلاصة القول: **سنن الكون هي: النواميس الحاكمة في الطبيعة وفي العالم المادي وفي نظام الكون وتركيبه وحركته ومجرياته، وتسمى الآيات الكونية، وآيات الآفاق، وسنن الطبيعة. وتسمى بلسان العصر علوم الفلك والفضاء والأرض والبحار والأحياء..**

وهذا النوع من السنن "تخضع له جميع الكائنات الحية في وجودها المادي وجميع الحوادث المادية، ويخضع له كيان الإنسان المادي وما يطرأ عليه مثل نموه وحركة أعضائه ومرضه وهرمه ولوازم بقائه حيا ونحو ذلك"[2].

كما أن هذه السنن جميعها تمثل إعجازا قرآنيا خالدا، وناموسا ثابتًا ومطردا، يمثل القواعد الأساس للحياة الإنسانية المستقيمة.

وقد وجه القرآن الكريم عناية كبيرة للسنن الكونية وحث الأمة على السعي لاكتشافها وتسخيرها.. "فمن زرع وأحسن اختيار البذور، واختيار التربة وروى بنظام يأتي له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكل مَن خلق الله، مؤمنًا كان أو كافرًا، عاصيًّا أو طائعًا، لكن عطاء الألوهية يكون في اتباع المنهج ب(افعل ولا تفعل) وهذا خاص بالمؤمنين، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة في السنن الكونية. يأخذون حظهم منها، والكافرون أيضًا يأخذون حظهم منها، إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب؛ ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم. وأخذ المكافآت والجوائز وحفلات التكريم. أما جزاء الآخرة فيأخذه من عمل لرب الآخرة، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول في حقهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: 23]"[3].

وهكذا نجد سنن الكون سخرت للإنسانية كلها، والدين الدين الإسلامي أرشد إليها وأمر بالنظر في الكون والتفكر والاعتبار، وفصل ما تمس إليه الحاجة، وهدانا إلى أن لكل عمل أثرًا لا يتعداه، وأن الأسباب مربوطة بمسبباتها، وكل سبب يفضي إلى غاية، والأمور الدنيوية لا يمنعها الله عن طلابها إذا أتوا البيوت من أبوابها، والتمسوا الرغائب من طرقها وأسبابها، سواء كانوا مؤمنين أم كافرين، وإنما الإيمان شرط للمثوبة في العقبى وكمال السعادة في الدنيا[4]: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هؤلاء وهؤلاء مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: 20].

---

(1) تفسير الشعراوي، 11569/19.

(2) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، ص7.

(3) تفسير الشعراوي، 4358/7.

(4) "وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ القُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ"، محمد رشيد رضا، فاتحة مجلة المنار، العدد 31، الصادر في 2 جمادى الآخرة سنة 1316، ص591.

فالكون فضاء مفتوح أمام الجميع، ومسخَّر لكل أحد، لا فرق بين مؤمن وكافر، فمن سخَّره وفق قوانين التسخير حصَّل خيره ودفع عنه شره، ومن قعد عن ذلك وتوانى، فقد فاته خير كثير، وأصابه ضر كبير.

وهذا الكون الذي خلقه الله تعالى بناه على نظام دقيق من أجل أن تسير السنن الكونية في مجالاتها التي حددها الله، وعندما تنتظم هذه السنن في حركتها فهي تعطي النتائج للإنسان ولو بعد حين، حتى إن بعض المفسرين والمتكلمين بعمق يقولون: إن الأمراض الوراثية التي تنتقل من أجيال سابقة إلى أجيال لاحقة كان السبب فيها تقصير آباء واجتراءهم على أشياء مخالفة لمنهج السماء، فإذا شرع الله سنة كونية للفرد ثم خالفها تصيبه نتيجتها السيئة من بعد ذلك، وكذلك الأمة والجماعة[1].

والجدير بالذكر هنا أن سنن الكون سخرها الله تعالى للإنسان، ليقيم حياته ويبني عمرانه ويحقق ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، فهي تحت سلطة العقل والتجربة والخبرة مباشرة، حيث يمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من قوانينها عبر الملاحظة والتجربة، ومن خلال الاستفادة من التجارب البشرية السابقة وخبراتها، ويمتلك القدرة على استثمار معطياتها المتنوعة في تلبية حاجات خلافته في الأرض ومواجهة التحديات التي تعترضها. قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33)﴾[إبراهيم]، وقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان].

لقد أظهر الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم الكثير من سنن الكون وأخفى الكثير منها كذلك؛ ليكتشف منها الإنسان في كل زمان ما يناسبه، وما يكون دليلًا جديدًا من الأدلة التي تؤكد صدق ما جاءت به الرسالة المحمدية الخاتمة. قال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (الروم: 48)، وقال جل وعلا: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (37) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (38) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (39) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (40)﴾(يس).

2- سنن الله الاجتماعية أو الإنسانية.

عرفها الشيخ محمد الغزالي(ت: 1416هـ) بقوله: هي تلك القوانين المطردة والثابتة التي أودعها الله في الحياة البشرية، والتي تشكل إلى حد كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية وتعين على فهمها[2].

وعرفها الدكتور عماد الدين خليل: إنها المبادئ الأساس التي تحكم حركة التاريخ البشري في ماضيه وحاضره ومستقبله[3].

---

[1] تفسير الشعراوي، 2443/4.

[2] كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، ص49.

[3] التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص97.

ومجمل القول: السنن الاجتماعية هي: النواميس المتحكمة في الإنسان –باعتباره فردا وجماعة وأمة– وفي فكره وسلوكه وحركته في المجتمع وفاعليته في التاريخ. أو هي مجموعة من القواعد والضوابط والمبادئ والأحكام التي رسمها الله تعالى من أجل إصلاح حال الأفراد والجماعات والأمم في شؤونهم الدنيوية والأخروية، والارتقاء بالنفس البشرية إلى المراتب العلوية.

ويسمى هذا النوع من السنن أيضا: السنن الإنسانية والسنن التاريخية وسنن الأنفس..

نقول الاجتماعية؛ لأن الإنسان هو الفاعل في المجتمع بسلوكه وتصرفه سلبا أو إيجابا.

ونقول التاريخية: عندما ننظر إلى المجتمعات وحركية الإنسان فيها من زاوية تاريخية.

ونقول سنن الأنفس: لأن سلوك الفرد —صلاحا وفسادا– ناتج عن طبيعة نفسه.

والقرآن الكريم أولى اهتماما كبيرا لفقه السنن الاجتماعية من خلال حديثه عن مجموعة من السنن العامة، وتوجيه الاهتمام للعناية الشديدة بها، من خلال الدراسة السننية للتاريخ الاجتماعي والحضاري للمجتمعات البشرية عامة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (آل عمران: 137). فالقرآن الكريم "يربط ماضي البشرية بحاضرها، وحاضرها بماضيها، فيشير من خلال ذلك كله إلى مستقبلها.

وهؤلاء العرب الذين وجه إليهم القول أول مرة لم تكن حياتهم، ولم تكن معارفهم، ولم تكن تجاربهم– قبل الإسلام– لتسمح لهم بمثل هذه النظرة الشاملة. لولا هذا الإسلام– وكتابه القرآن– الذي أنشأهم به الله نشأة أخرى، وخلق به منهم أمة تقود الدنيا"[1].

ولذلك فإبراز السنن الاجتماعية (سنن الأنفس) المبثوثة في القرآن الكريم؛ تُعَرِّفنا حقيقة أنفسنا وسلوكنا وعلاقاتنا، وعلى حقيقة المجتمعات الإنسانية، كما تمكننا من فهم طبيعة المجتمع المعاصر وحاجاته وتحدياته والتحكم فيه من ناحية أخرى، وفهم شروط تحقيق الفعالية في حركة الخلافة والعمران البشري.

ويمكن للإنسان أن يكتشف الكثير من سنن الوجود البشري عبر الملاحظة المنظمة والتجربة والاستقراء والاستنباط والاستفادة من الخبرات البشرية السابقة، ويبني عليها حركة عمرانه البشري.

وغاية المرام: إن جميع تقسيمات السنن الإلهية هي بمثابة منظومة واحدة متكاملة ومتناسقة تخرج من مشكاة واحدة: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 54).

ثالثا- العلاقة بين السنن الكونية والسنن الاجتماعية والفرق بينها.

1 - العلاقة بين السنن الكونية والسنة الاجتماعية.

إن الحديث عن نوعين من السنن لا يعني انبتات الصلة بينهما، أو أنهما يمثلان عالمين متباينين، كلا، فإن الصلة بينهما وطيدة، والعلاقة بينهما متينة، ذلك بأن عبارة "السنن الكونية" تتضمن الإنسان بالضرورة باعتباره جزءا من هذا الكون، بل هو سيده؛ إذ لا يعقل أبدا أن تعمل السنن الكونية بمعزل عن الإنسان، وما خلق هذا

[1] في ظلال القرآن، 449/1.

الكون بدءا إلا من أجله، وهذا ما يؤكده القرآن الكريم في أكثر من موضع كما قوله جل وعلا: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية: 13). وقول جل ثناؤه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾(لقمان: 20).

وحتى السنن الاجتماعية لا تكتمل وظيفتها ولا تؤدي وظيفتها كاملة دون الاعتماد على عناصر من الكون.

يقول سيد قطب –رحمه الله–: "قد تأخذنا في بعض الأحيان مظاهر خادعة لافتراق السنن الكونية، حين نرى أن اتباع القوانين الطبيعية يؤدي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية.. هذا الافتراق قد لا تظهر نتائجه في أول الطريق ولكنها تظهر حتما في نهايته.. وهذا ما وقع للمجتمع الإسلامي نفسه. لقد بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية. وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما. وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق حتى وصل إلى الحضيض عند ما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا..

وفي الطرف الآخر تقف الحضارة المادية اليوم. تقف كالطائر الذي يرف بجناح واحد جبار، بينما جناحه الآخر مهيض، فيرتقي في الإبداع المادي بقدر ما يرتكس في المعنى الإنساني ويعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسية والعصبية ما يصرخ منه العقلاء هناك.. لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله، وهو وحده العلاج والدواء.

إن شريعة الله للناس [السنن الشرعية] هي طرف من قانونه الكلي في الكون. فإنفاذ هذه الشريعة لا بد أن يكون له أثر إيجابي في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون.. والشريعة إن هي إلا ثمرة الإيمان لا تقوم وحدها بغير أصلها الكبير. فهي موضوعة لتنفذ في مجتمع مسلم، كما أنها موضوعة لتساهم في بناء المجتمع المسلم. وهي متكاملة مع التصور الإسلامي كله للوجود الكبير وللوجود الإنساني، ومع ما ينشئه هذا التصور من تقوى في الضمير، ونظافة في الشعور، وضخامة في الاهتمامات، ورفعة في الخلق، واستقامة في السلوك ... وهكذا يبدو التكامل والتناسق بين سنن الله كلها سواء ما نسميه القوانين الطبيعية وما نسميه القيم الإيمانية [أي السنن الاجتماعية].. فكلها أطراف من سنة الله الشاملة لهذا الوجود"[1].

والمتدبر لآيات القرآن الكريم يلحظ ذلك التناسق العجيب بين نوعي السنن، قال الله تباك وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (29)﴾[سورة ص]، فخلق السماوات والأرض تعبير عن السنن الكونية والآفاقية، والتمايز بين المؤمنين الصالحين المتقين والكافرين المفسدين الفجار، ونزول الوحي وتدبر آيات الكتاب الحكيم تعبير عن السنن الاجتماعية والشرعية، فانظر إلى هذا التناغم الهائل بين نوعي السنن، والأمثلة على هذا كثيرة جدا.

هكذا تبدو العلاقة بين السنن الاجتماعية والكونية وطيدة ومتكاملة لأكثر من سبب من ذلك:

أ– صدورها جميعا عن إله واحد وإرادة واحدة: وقد عبر القرآن الكريم عن وحدة المصدر حين قرن بين نوعي السنن في سياق واحد في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 54).

---

[1] في ظلال القرآن، 1/17–18.

فالخلق يراد به السنن الكونية الخَلقية، والأمر يُقصد به السنن الشرعية الخُلقية، فوحدة المصدر تجعل هذه السنن منسجمة ومتناسقة، بعيدة عن التناقض والتضارب، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: 22).

ب- السنن الاجتماعية جزء من السنن الكونية: فهي حلقة في سلسلة سنن مبثوثة في هذا الكون الواسع، مرتبطة أشد الارتباط في وحدة نظامية يأخذ بعضها بحجز بعض، وتتماسك في انسجام حتى تُكوّن نظاما كونيا متناسقا أبدع ما يكون التناسق، يسير العالم في ظله بسماواته وأراضيه ومن فيهما وما فيهما وما بين ذلك من خلق لا يعلم عدده ولا حقائقه إلا مقدِّره وخالقه، محكوما بتلك السنن الإلهية التي لا تحيد عن خطها المرسوم. وشبيه بذلك قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت: 53).

فقد جاءت آيات الآفاق والأنفس في سياق واحد مما يدل على ارتباطها وتكاملها.

ت- الاستخلاف قائم على السنن الكونية: وهذا وجه آخر من أوجه التكامل والترابط بين نوعي السنن، ذلك بأن أكبر مهمة خلق الإنسان لأدائها هي الاستخلاف في الأرض، استنادا إلى قوله جل ثناؤه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(البقرة: 30)، وهذا لا يتم إلا بالاستفادة من السنن الكونية والسير وفق السنن الاجتماعية، ذلك بأن الخلافة في الأرض سيادة وعبادة؛ فهي سيادة بتحكم الإنسان في السنن التي أودعها الله تعالى هذا الكون، وعبادة بالتزامه الأوامر والنواهي التي شرعها الله سبحانه وتعالى، ولا يكون الإنسان خليفة إلا بتحقيقه للأمرين معا، مما يعطي دليلا آخر على مدى الارتباط بين السنن الكونية والاجتماعية.

ث- الأخذ بالسنن الكونية والاجتماعية تحقيق للسعادة في الدنيا والآخرة: فالسنن الكونية والاجتماعية طرفا معادلة، لا تتحقق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة إلا بالأخذ بهما معا، وبقدر تمثل الناس لهما أو تقصيرهم فيهما تكون درجة السعادة أو الشقاء، ولذلك كانت مواقف العباد إزاء هذه المعادلة أصنافا أربعة:

الصنف الأول: سار وفق السنن الاجتماعية واستفاد من السنن الكونية، فتتحقق له الطمأنينة والرخاء المادي ويسعد في الدنيا والآخرة، وتلك هي حقيقة الاستخلاف التي خلق الإنسان من أجلها، فهذه طائفة امتثلت قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (الأعراف: 96)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الجن: 16). وهكذا كان حال سلفنا الصالح حققوا شرطي الإيمان والتقوى واستقاموا على الطريقة، فمكنّهم الله في الأرض وفتح عليهم بركات من السماء والأرض.

الصنف الثاني: استفاد من السنن الكونية وتنكب السنن الاجتماعية، فهذا يعطى حظه من الدنيا، ولكنه يحرم من السعادة الحقة بحرمانه من البركة، وإلى هذا الصنف يشير قوله جل وعلا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (الإسراء: 18). و قوله عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (الشورى: 20).

ويصدق هذا الأمر على الحضارة الغربية اليوم التي بلغت في تسخير مدخرات الكون شأوًا بعيدًا لم تبلغه من قبل، ولكنها تنكرت لسنن الله تعالى في المجتمعات كلية، فأعقبها الله معيشة ضنكا، ملؤها الأزمات والنكبات، ولم

يغن عنها ما حققته من تقدم هائل في مجال الماديات، وحق فيها قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: 124).

الصنف الثالث: أخذ بطرف من السنن الاجتماعية، ولم يبذل أدنى جهد للاستفادة من سنن الله في الكون –وربما اعتقد أن مجرد الإيمان كاف للتمكين في الأرض– فمن كان هذا حاله يشقى في الدنيا، ويكون تحت رحمة من يستفيد من السنن الكونية، ثم هو مؤاخذ يوم القيامة على تفريطه في الأخذ بالأسباب، ولعل ما يحياه المسلمون اليوم مثال على هذا الصنف فقد قعدوا عن الكشف عن مدخرات الكون وتسخير ما فيه من خيرات، فأصبحوا يعيشون عالة على غيرهم، وأضحت مصائرهم بأيدي أعدائهم، ولن يغني عنهم ما يدعونه من استمساكهم الهزيل بالسنن الاجتماعية.

الصنف الرابع: أعرض عن السنن الاجتماعية والكونية معًا، فهو شقي في الدنيا والآخرة، وتمثل كثير من الشعوب المتخلفة غير المؤمنة هذه الطائفة.

هذه بعض وجوه الارتباط بين السنن الكونية والاجتماعية، فهي تمثل منظومة متكاملة تعمل في تجانس وتناغم وانتظام، وإن اختص كل نوع منها بعالم مستقل.

2 -الفروق بين السنن الكونية والاجتماعية.

بعد أن عرفنا بعض وجوه الارتباط والتكامل بين السنن الكونية والاجتماعية، ننتقل للحديث عن الفروق بينهما، وليس بين الأمرين أدنى تناقض، لأن إثبات التكامل لا ينفي وجود فروق، إذ بهذه الفروق يتميز كل نوع من السنن، ومن ثم نستطيع الوقوف على أوجه الاختلاف بين نوعي السنن، وبذلك تكتمل لدينا المقارنة.

والحق أن الفروق بين السنن الكونية والاجتماعية كثيرة، ولكنني سأقتصر على ذكر أهمها، والتي تتلخص في خمسة فروق هي:

1- **طبيعتهما**: وهذا العنصر قد ألمحت إليه آنفا، حين بينت أن السنن الكونية عامة تستوعب ما في هذا الوجود من عالم مادي وعوالم حية بما في ذلك الإنسان، أما السنن الاجتماعية فخاصة بالإنسان، فطابع العموم والخصوص هو أول فارق نلحظه بين نوعي السنن.

2- **مجالهما**: فأما السنن الكونية فمجالها ملكوت السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما، بما أودع الله تعالى فيها من نواميس، وغالبا ما ترتبط السنن الكونية بالجانب المادي من هذا الكون، وهو ما يسميه القرآن الكريم بآيات الآفاق، يعني أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها.

وأما السنن الاجتماعية فمجالها الكتاب المنزل وما تضمن من أحكام وتشريعات وآيات ونذر، وخاصة تلك الخلاصة المركزة من القصص القرآني الذي يمثل رصيدا تاريخيا عن أخبار الأمم السالفة وكيف كانت عاقبتها، ثم ما طُلب من هذه الأمة أن تتعلمه من سير الذي خلوا من قبل فتتجنب الأخطاء التي وقعوا فيها.

3- **منهج الكشف عنهما**: وأقصد بالمنهج طريقة تعرف كل نوع من السنن، إذ تتفق السنن الكونية والاجتماعية في كونهما يُتعرف عليهما بالمنهج الاستقرائي المبني على النظر والتأمل، ولكنهما تختلفان بعد ذلك اختلافا بينا في مجال النظر.

كما تتفق في وسيلة الكشف، وهي أجهزة الوعي لدى الإنسان ممثلة في الأسماع والأبصار والأفئدة، إلا أن القوى توجه في كل نوع توجيها خاصا ينسجم مع طبيعة تلك السنن.

فمنهج الكشف عن السنن الكونية قائم على النظر والتدبر فيما خلق الله تعالى في هذا الكون الواسع، وما أودع في هذه المخلوقات من نواميس وسنن تمكنها من أداء وظيفتها في انسجام تام، ولذلك حرص القرآن الكريم على توجيه الأبصار والبصائر إلى هذا الكتاب المنظور (الكون)، ودعا الإنسان إلى التأمل والتفكر، نقرأ ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: 185). وقوله جل وعلا: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)﴾(سورة ق).

وواضح أن هذه الآيات وغيرها ترسم منهجا للكشف عن سنن الله تعالى في ملكوت السموات والأرض وذلك عن طريق النظر والتدبر الذي لا يقصد منه مجرد الرؤية، بل هو أن تبصر العين وتعي ما تبصر.

ومن ثم فقد حمل القرآن الكريم الإنسان المسؤولية لاتباع الطريق الذي رسمه في كتابه الحكيم، ودعاه إلى السير في الأرض والتفكر آيات الكون لاستكشاف السنن الإلهية الأخرى المبثوثة في الكون (الكتاب المفتوح)، ودعاه إلى دراستها عن طريق تقليب النظر في الكون، وإعمال التجربة، وكل وسائل المعرفة فيه، وتسخير كل ما يصل به إلى معرفة قانون مصلحة الإنسان وسعادته[1].

والحاصل أن هذا النظر متاح لكل ذي عقل، وغير متعلق بدين أو معتقد، فكل من تعامل مع الكون بالكشف والتأمل وفتح أجهزة الوعي لديه، وجد الكون سخيا معطاءً، ولو كان ملحدا، ومن عطل تلك القوى، ولم يتعامل مع الكون بالتدبر والتأمل لم تفتح له مغاليقه ولو كان مؤمنا.

وهكذا يتضح أن السنن الكونية مبذولة لكل الناس، وهذا من عطاء العاجلة الذي يتيحه الله جل وعلا لمن يريد، قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (19) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (20)﴾ (الإسراء).

هذا عن منهج الكشف عن السنن الكونية، أما **منهج الكشف عن السنن الاجتماعية**، فيتجلى في تدبر الوحيين -قرآنا وسنة- والسير في الأرض؛ أي دراسة التاريخ. ذلك بأن البحث عن أحوال الماضين ومعرفة أخبار الأوائل وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي..

وبناء على هذا، فيتبدّى منهج الكشف عن السنن الاجتماعية في ثلاثة أسس:

---

[1] مفهوم السنن في الفكر الإسلامي، حازم محي الدين، ص38.

أولها: القرآن الكريم: الكتاب الإلهي الأول الذي مكّن من ظهور مفهوم السنن الاجتماعية وتبلوره على المستوى النظري والعملي، وهو المصدر الذي أسبغ المشروعية الكاملة على هذا المفهوم، وأعطاه مكانة محورية رئيسة في العقل[1].

والقرآن الكريم في كثير من آياته يدعو الإنسان إلى التفكر والتدبر لسنن الله في الأنفس والآفاق، والكشف عن دلالتها التاريخية والحضارية والاجتماعية والنفسية...

بل إن لفظة "السنة" وردت في القرآن الكريم ست عشرة مرة ورودا صريحا مباشرا في سياق ذكر الأمم الغابرة والمجتمعات السابقة، ولم يكتف القرآن الكريم بهذا، بل جعل القصص القرآني كله ميدانا وساحة لاستعراض السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ودعا أولي الألباب والبصائر إلى الاعتبار واستلهام الدروس واستمداد السنن منها، وسبر أغوار هذه الوقائع لتبين أسباب الهلاك والبوار، وأسباب صلاح الأمم وفسادها... وضرب لنا الأمثال ليوضح عدالته ونفاذ سننه وصرامتها واستمرارها في الخليقة، وعدم مجاملتها لأحد...

"ومهما يكن من أمر فقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية، وحدثنا عن الماضي في جل مساحاته لكن ما يلبث أن يخرج بنا إلى تبيان (الحكمة) من وراء هذه العروض، وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساس في حركة التاريخ البشري مستمدة من صميم التكوين الحدثي لهذه العروض، تلك المبادئ التي سماها (سنناً)، ودعانا أكثر من مرة إلى تأملها واعتماد مدلولاتها في أفعالنا الراهنة، ونزوعنا المستقبليّ.

ومن ثم يتأكد لنا مرة أخرى أن هذه العروض ما جاءت لكي تلقي المتعة في نفوس المؤمنين، كما هو الحال في أي نشاط فني، قبل أن تبرز للعيان الاتجاهات التعليمية الحديثة في ميادين الفنون، إنما جاءت لكي (تعلمهم) من خلال تجاربهم الماضية و(تحركهم) عبر الأضواء الحمراء والخضراء التي أشعلتها لهم هذه التجارب في طريق الحياة المزدحم الطويل "[2]؛ ولتكون نبراساً يستضاء به، ويقتبس منه صدق المسار أو انحرافه.

ثانيها: السنة النبوية: إن للسنة النبوية الشريفة أهمية كبرى في معرفة السنن الاجتماعية، فمنها نستقي الرؤية الصحيحة للكون والحياة، باعتبارها التجلي العملي الحي للقرآن الكريم، والتفسير التطبيقي لسننه وأحكامه ومقاصده.

ولذلك فالسنة النبوية الشريفة غنية بالتوجيهات النبوية في الدلالة على السنن الاجتماعية، يكفي أن السيرة العطرة ساحة كبرى تجلت فيها هذه سنن الاجتماع في جانبها العملي التطبيقي، أضف إليه توجيهه ﷺ إلى معرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها...

أضف إليه العشرات من أحاديثه ﷺ الشريفة التي تتحدث عن المستقبل وتحقق تنبؤاته إذا توافرت شروطها. وأحاديثه ﷺ التي تذكر بقصص السابقين من المؤمنين والكافرين، بغرض الاعتبار والوقوف على سنن الله تعالى في الهدى والضلال، والحق والباطل.

وثالثها: التاريخ: وهو الذي يقصد القرآن الكريم في دعوته الناس إلى السير في الأرض.

---

[1] مفهوم السنن في الفكر الإسلامي، حازم محي الدين، ص32.

[2] التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص97-98.

إن التاريخ هو السجل المستمر لدورة الحياة وحركة الأحياء وتقلبات الزمن، ولذلك حض القرآن الكريم الإنسان وحثه على دراسة علم التاريخ، ومتابعة حركة المجتمعات والأمم فيه في أطوار تكونها ونشأتها ونموها وانحطاطها وسقوطها وموتها، من خلال الدعوة إلى السير في الأرض لاكتشاف سنن الله تعالى في الأمم والأفراد والجماعات عن طريق استقراء الوقائع التاريخية والحوادث الزمنية، والبحث عن القوانين التي تحكم الأحداث من الداخل؛ أي: البحث عن السنن التي أجرى الله تعالى عليها حركة التاريخ ونظام الأفراد والأمم والجماعات؛ لأن هذه نفسها ستتكرر معنا، "والتاريخ يعيد نفسه"[(1)].

يقول مؤرخنا الحكيم عبد الرحمن بن خلدون –رحمه الله-: "اعلم أنّ فنّ التّأريخ فنّ عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتّى تتمّ فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدّين والدّنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوّعة وحسن نظر وتثبّت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ، وينكّبان به عن المزلّات والمغالط"[(2)].

ويقول الشيخ محمد رشيد رضا: "التاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم إلى ما هي فيه من سعة العمران وعزة السلطان، وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين إلى العناية بالتاريخ ومعرفة سنن الله في الأمم منه، وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثاني إلى ذلك، فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة أهمل التاريخ، بل صار ممقوتا عند أكثر المشتغلين بعلم الدين، فإن وجد من يلتفت إليه، فإنما يكون متبعا في ذلك سنة قوم آخرين"[(3)].

ويقول الدكتور عمر عبيد حسنة: "التاريخ هو المختبر الحقيقي في إطار علوم الإنسان، وهو الأب الشرعي لكل العلوم الاجتماعية التي لابد من الإحاطة بها، والرسوخ فيها، ومعرفة قوانينها وسننها التي تحدد المداخل الصحيحة للشهادة على الناس، وتقود إلى صناعة تاريخية مستقبلية علمية بعيدة عن التنبؤ والظن والتخرص...

إن طلب السير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات، جعله النص الإلهي من الفروض الكفائية التي تُفضي إلى التبيُّن والتبصُّر، والاهتداء إلى السُّنن الاجتماعية في السقوط والنهوض، واختزال التاريخ الإنساني، وتحقيق الاعتبار، وإضافته إلى عمر الأمة المسلمة وتجربتها؛ لحقق الوقاية الحضارية، وتتعظ بأحوال السابقين"[(4)].

وعليه فإن دراسة التاريخ ليست مجرد سرد للوقائع والأحداث، وإنما هي دراسة تستهدف تفسير وقائع التاريخ وأحداثه، من أجل استخلاص الدروس والعبر التي تساعد الإنسان على تعرف أمثل الطرق لتنظيم حياته على النحو الذي يحقق له الخير في الدنيا والآخرة[(5)].

يقول الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام: 11).

---

(1) انظر: مفهوم السنن في الفكر الإسلامي، حازم محي الدين، ص38.

(2) تاريخ ابن خلدون، 13/1.

(3) تفسير المنار، 258/1-259.

(4) الشاكلة الثقافية مساهمة في إعادة البناء، ص82.

(5) أضواء على الاقتصاد الإسلامي (11)؛ المدخل لدراسة التاريخ الاقتصادي والحضاري رؤية إسلامية، حسين غانم، ص5.

قال ابن عرفة: "والسير في الأرض حسي ومعنوي، والمعنوي هو النظر في كتب التاريخ بحيث يحصل للناظر العلم بأحوال الأمم، وما يقرب من العلم، وقد يحصل به من العلم ما لا يحصل بالسير في الأرض لعجز الإنسان وقصوره"[1].

فالملاحظ إذن استعمال حاسة السمع للكشف عن السنن الاجتماعية زيادة على البصر، ويبدو ذلك منطقيا، لأن هذه السنن فضلا عن كونها تاريخا يستقرأ بالسمع والبصر، فهي أوامر شرعية قائمة على الأمر والنهي، مما يستدعي الاعتماد على حاسة السمع، وهذا ما أشار إليه الإمام ابن تيمية –رحمه الله– عند تفسيره قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: 18). فقال: "وإذا كان لابد من بيان شهادته للعباد؛ ليعلموا أنه شهد فهو قد بينها بالطريقتين: السمع والبصر. فالسميع يسمع آيات الله المتلوة المنزلة، والبصير يعاين آياته المخلوقة الفعلية؛ وذلك أن شهادته تتضمن بيانه ودلالته للعباد وتعريفهم ذلك، وذلك حاصل بآياته، فإن آياته هي دلالته وبراهينه التي بها يعرف العباد خبره وشهادته، كما عرفهم بها أمر ونهيه، وهو عليم حكيم؛ فخبره يتضمن أمره ونهيه، وفعله يُبيّن حكمته"[2].

فما يسميه ابن تيمية آيات الله المتلوة المنزلة هي السنن الاجتماعية.

ومن ثم فإن السنن الاجتماعية تتفرد بمنهج خاص للكشف عنها –وإن اتفقت من حيث المبدأ مع منهج الكشف عن السنن الكونية في الاستقراء والنظر–.

وهكذا نخلص إلى أن السنن الكونية قائمة على النظر والتدبر في آيات القدرة ودلائلها، في حين أن السنن الاجتماعية قائمة في شقها الأول على منهاج شرعي أساسه الأمر والنهي، أي آيات الله المتلوة، وفي شقها الثاني على منهاج تاريخي قائم على السير في الأرض والنظر في سنن الذين خلوا من قبل.

يقول اله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: 46).

الفارق الثاني في منهج الكشف عن نوعي السنن هو: تحديد نطاق النظر في السنن الاجتماعية وهو الأرض، في الوقت الذي فُتح فيه المجال واسعا في السنن الكونية لتشمل ملكوت السموات والأرض، والسبب أن الأرض هي مسرح الحياة البشرية، عليها عاشوا وعليها بَنَوا وشيّدوا، وعليها تركوا آثارهم، فهي مستودع السنن الاجتماعية، وبالسير فيها والنظر إلى آثار الذين خلوا من قبل تحصل العبرة وتُتّقى أسباب مصارعهم.

4– اطرادهما: ليس الغرض من هذا العنصر هو تتبع جملة خصائص نوعي السنن، والمقارنة بينها، إنما سأكتفي بالوقوف عند خصيصة واحدة هي الاطراد، ومن خلالها سأبين وجوه الاختلاف بين اطراد السنن الكونية والسنن الاجتماعية، ولابد من الإشارة إلى أن كلا النوعين يتفق في جملة من الخصائص.

أما الاطراد، ومعناه: تتابع حصول السنة وتكررها كلما توافرت شروطها، وعدم تغيرها وتبدلها، فهو واضح في السنن الكونية والاجتماعية على حد سواء، ولكن الفرق أن السنن الاجتماعية ثابتة الاطراد بنص القرآن الكريم في

---

[1] ينظر: تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، 97/4.

[2] ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية، 187/14–188.

أكثر من موضع، وكلها تصف هذه السنن بعدم التبدل أو التحول، وذلك في قوله جل وعلا: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: 43)، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: 62)(الفتح: 23).

فمثل هذه التعقيبات جاءت كلها بعد الحديث عن السنن المتعلقة بالمجتمع، مما يدل على أن الاطراد في السنن الاجتماعية ثابت وأنها لا تتغير ولا تتبدل، أما السنن الكونية فليس ثمة ما يدل على لزوم اطرادها، إذ لم ترد في القرآن الكريم بلفظ ((السنن)) ومن ثم فالأصل ألا تكون مشمولة باللزوم المستفاد من الآيات السابقة؛ لأن استقراء استعمال (سنة الله) في القرآن الكريم يرينا أنها واردة في سنن التاريخ والاجتماع ومن ثم لا يجوز تعميمها على كل السنن بدلالة النص، لأن الأصل مراعاة مود الاستعمال، كما لا يمكن أن تجعل اللزوم لسنن الكون بطريق القياس على سنن التاريخ والاجتماع لأنه قياس مع الفارق[1].

ويذكر ابن تيمية سببا آخر للتفريق بين الاطراد في السنن الكونية والسنن الاجتماعية، وهو أن السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية من فعل الله المبني على المشيئة والحكمة، وهذه السنن ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم، وأعطى أمثلة من المعجزات التي تعتبر خرقا لقوانين الكون فقال: "فقد عُرف انتقاض عامة العادات، فالعادة في بني آدم ألا يخلقوا إلا من أبوين، وقد خلق المسيح من أم، وحواء من أب، وآدم من غير أم ولا أب، وإحياء الموتى متواتر مرات عديدة، وكذلك تكثير الطعام والشراب لغير واحد من الأنبياء والصالحين عليهم السلام"[2].

ويؤكد ابن تيمية عدم لزوم الاطراد في السنن الكونية بقوله: "العادات الطبيعية ليس للرب فيها سنة لازمة"[3].

أما السنن الاجتماعية فإنها وإن كانت من فعل الله تعالى المبني على المشيئة والحكمة إلا أن فيها معنى ترتب هذا الفعل على عمل الإنسان من خير أو شر، ومن ثم كان فيها معنى العدل والجزاء، ومن ثم كان اللزوم فيها من مقتضيات العدل الذي هو صفة ثابتة ودائمة لله تعالى[4].

وقد أشار ابن تيمية إلى لزوم الاطراد في السنن الاجتماعية بقوله: "وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: 43) دليل على أن هذا من مقتضى حكمته، وأنه يقضي في الأمور المتماثلة بحكم، فإن ذلك لا ينتقض ولا يتبدل ولا يتحول"[5].

ولا أقصد مما سبق نفي الاطراد عن السنن الكونية جملة وتفصيلا، ولأن كل ما حولنا من ظواهر وآيات كونية يشهد لها بالاطراد، لكني أقصد نفي لزوم الاطراد لا الاطراد نفسه، فالاطراد في السنن الكونية غالب عام، ولا دليل على لزومه، لأنها كانت عبر أزمان طويلة عرضة للتبدل والتغير بمقتضى حكمة الله تعالى ومشيئته في معجزات الأنبياء والمرسلين وكرامات الأولياء والصالحين.

---

(1) سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول، أحمد حسن فرحات، ص45.

(2) جامع الرسائل لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، 53/1.

(3) نفسه.

(4) سنة الله التي لا تبدل ولا تتحول، أحمد حسن فرحات، ص45.

(5) جامع الرسائل، 55/1.

إن الاطراد في السنن الكونية عام غالب، ولا ينخرق إلا في حالات استثنائية، أما الاطراد في السنن الاجتماعية فهو لازم لا يتبدل ولا يتحول، ومما يشهد على ذلك أن السنة الكونية قد تنخرق أو تتعطل لتحقيق سنة اجتماعية، ولعل أحسن ما يثبت هذا القول المثال الآتي: من المعلوم أن حركة الشمس سنة كونية قال الله تعالى عنها: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (يس: 38)، ونصر الله لعباد المرسلين سنة اجتماعية قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173)﴾(الصافات).

فهاتان سنتان معلومتان مطردتان، ومع ذلك فقد اقتضت حكمة الله تعالى ومشيئته أن يعطل سنة جريان الشمس ويخرقها لتحقيق سنة نصر عباده المرسلين، وهذا ثابت بنص هذا الحديث الصحيح: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لاَ يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا؟ وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا، وَلاَ أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا، وَلاَ أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وِلاَدَهَا، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاَةَ العَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: إِنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا، فَحُبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَجَمَعَ الغَنَائِمَ، فَجَاءَتْ يَعْنِي النَّارَ لِتَأْكُلَهَا، فَلَمْ تَطْعَمْهَا فَقَالَ: إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَلْيُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الغُلُولُ، فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، فَوَضَعُوهَا، فَجَاءَتِ النَّارُ، فَأَكَلَتْهَا ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الغَنَائِمَ رَأَى ضَعْفَنَا، وَعَجْزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا»[1].

وفي رواية عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ»[2].

إن كل ما قيل عن خصيصة الاطراد في السنن الكونية، لا يعني بحال القعود عن الاستفادة منها بدعوى أن اطرادها غير حتمي ولا لازم، فهذه قناعة من شأنها أن تقوض جهودا جبارة قام بها الإنسان منذ قرون في مجال الاكتشافات والتجارب العلمية القائمة على السنن الكونية.

5– نتائجها: والمقصود بالنتائج طريقة عمل السنن الكونية والاجتماعية، وكيفية نفاذها، وهذا بدوره مجال لبيان الفروق بين نوعي السنن، فالسنن الكونية ذات أسباب واضحة بينة مضبوطة تمثل مقدمات إذا استطعنا معرفتها والإحاطة بها أمكننا بسهولة ويسر تحديد نتائجها بل أمكننا الذهاب بعيدا بتحديد ميقات تلك النتائج، وهذا أمر أضحى اليوم بدهي في كل ما استقر عليه العلم من تجارب علمية ثابتة صحيحة، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، وسأكتفي بعرض دليلين.

الأول: من علم الأجنة وفيه نتتبع مراحل تخلقها ونموها لنرى النظام الذي تسير وفقه، سواء أكانت هذه الأجنة أجنة بشر، أم أجنة حيوانات.

---

[1] صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول النبي ﷺ: «أحلت لكم الغنائم»، ح2956.

[2] مسند أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، 65/14.

"إن تكوين هذه الأجنة يبدأ من التقاء نطفة الذكر ببيضة الأنثى، ومن خلال عرس اللقاء هذا تتشكل خلية واحدة، هي العروس الملقحة التي لا تلبث بالانقسام والتكاثر إلى خليتين، ثم أربع، ثم ثمان، ثم ست عشرة... وفي مرحلة لاحقة يبدأ تخصيص كل مجموعة من الخلايا المتكاثرة، لتشكيل عضو من أعضاء المخلوق الجديد إلى أن يكتمل نموه، ويبلغ غاية خلقه، ويخرج إلى الحياة مخلوقا كاملا سويا"[1].

أما الثاني: فهو تركيب الماء.

فالماء يتركب من اندماج غازين مختلفين الأوكسجين والهيدروجين وفق المعادلة الكيميائية الآتية:

(شروط)

$$2H+O2 \xrightarrow{\hspace{3em}} 2H2O$$

(عوامل مساعدة)

وقد أصبح بمقدورنا اليوم أن نعيد تشكيل الماء من هذين الغازين بطرق اصطناعية، بعد أن عرفنا الشروط التي تتحكم باندماجهما، أهم هذه الشروط أن ندمج العنصرين بمقدارين متناسبين، وفق قاعدة النسب التي اكتشفها الكيميائي "دالتن" والتي تقول: "إن الاتحاد الكيميائي بين العناصر يجري طبقا لنسب معينة من هذه العناصر، في ظروف وشروط خاصة بكل منها"، فهذه القاعدة تعد سنة مطردة تخضع لها جميع التفاعلات الكيميائية التي تتم بين مختلف العناصر... وكلما وفرنا شروط هذه السنة حصلنا على نتائج التفاعل المطلوب، حتى ولو أعدنا التفاعل مئات المرات[2].

أما السنن الاجتماعية فهي ذات أسباب كثيرة متعددة ومتشابكة، يصعب تحديدها بسهولة أو الوقوف عليها بيسر، شأن السنن الكونية التي تبدو أكثر وضوحا، ومن هنا احتاجت السنن الاجتماعية إلى عقلية متأملة متفحصة للوقوف على أسبابها، فالحدث الاجتماعي الواحد قد تشترك في تكوينه أسباب سياسية واجتماعية واقتصادية وتربوية... وبالجملة حضارية متداخلة.

وقد تنبه الإمام ابن تيمية إلى هذه المسألة، وأكد أن السنن لا تعمل بمعزل عن الظروف الخارجية والموضوعية المحيطة بها وفي منأى عنها، بل هي تعمل وتمارس عملها في ضوء هذه الظروف، وبمعنى آخر لا يمكن أن تتحقق السنن الإلهية وتظهر إلى حيز الوجود الفعلي إذا لم تتوفر لها كل الظروف والشروط الموضوعية اللازمة لظهورها، وتنتف من أمامها كل العوائق والموانع الخارجية المنافية لوجودها، وعلى ضوء هذا الكلام والفهم، يفسر ابن تيمية سبب تخلف بعض السنن وعدم ظهورها –في حال توقع وجودها–

---

(1) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد محمد كنعان، ص56.

(2) نفسه، ص77.

على أنه بسبب انتفاء أحد شروطها، أو وجود أحد موانعها، وليس بسبب تغير سنة الله تعالى أو تبديلها، فسنن الله تعالى لا تقبل التبديل ولا التحويل[1].

ولذلك يتعين على كل دارس للسنن الاجتماعية أن تكون له مثل هذه النظرة الشمولية التي تستوعب كل الأسباب، وإلا كانت التفسيرات قاصرة وناقصة.

ولعله بسبب هذا التشابك والتشعب الذي يطبع السنن الاجتماعية، نرى علماء وفلاسفة الاجتماع والحضارة الذين حاولوا وضع قوانين وسننا للدورات الحضارية، وأسبابا للبناء والسقوط الحضاري لم يتمكنوا من الوصول إلى الحتمية... ولا نزال نسمع بالتفسير المادي، والليبرالي، والجدلي، والنفسي، والسياسي، والاقتصادي، والمذهبي، والقومي، والقبلي، والديني... للتاريخ[2].

ومرجع هذا التشعب في السنن الاجتماعية، وعجز علماء الحضارة والتاريخ عن رصدها ووضع قوانين صارمة لها، أنها متعلقة بالإنسان الذي يتميز عن باقي المخلوقات بخاصيتين أساسيتين هما: الروح، والإرادة الحرة، ولا يخفى ما لهاتين الخاصيتين من تأثير في سلوكات الإنسان مما يجعل طبيعته غامضة، الأمر الذي يجعله عصيا عن الفهم اليقيني[3].

لقد عجزت الفلسفات الوضعية باختلاف توجهاتها ومشاربها عن إعطاء تفسيرا مقنعا لكثير من الظواهر والأحداث الاجتماعية، وراحت تؤولها تأويلات غريبة تنطلق من الأسس التي تقوم عليها كل فلسفة، فوقفنا أمام حشد من التفسيرات كل يدعي لنفسه الصواب، ولكن الصواب لم يحالف واحدة منها، بسبب أنها نظرت إلى تلك الظواهر والأحداث — أو بتعبير أدق السنن الاجتماعية- نظرة أحادية، ومن زاوية واحدة، مع أن السنن كما أسلفنا ذات أسباب كثيرة متشعبة، وأمام تهافت هذه الفلسفات والمناهج لم تبق سوى معطيات الوحي في الكتاب والسنة التي تضمنت خلاصة السنن التي تحكم الحياة والأحياء، بما عرضت له من القصص القرآني عن نهوض الأمم والحضارات وسقوطها، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، بشكل أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية التي تحكم عالم المادة.

ومن هنا نفهم لماذا احتوى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على كل تلك السنن الاجتماعية، فيما يشبه القوانين أو المعادلات الرياضية، وذلك حتى يسهل على الناس الاعتبار بها، والعمل بمقتضاها، في حين نجد في مجال السنن الكونية، ملامح وتوجيهات فقط، وترك فيها المجال واسعا لعقل الإنسان ليكتشف ويبدع ما يفيده في تحقيق الاستخلاف في الأرض.

---

(1) ينظر: رؤية منهجية في التغيير، عمر عبيد حسنة، ص124-125؛ مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي السيد محمد رشيد رضا نموذجا، حازم زكريا محي الدين، ص70.

(2) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، عمر عبيد حسنة، ص23.

(3) نفسه، ص22.

وإذا كان نفاذ السنن الكونية ونتائجها فورية بحيث يحصل التفاعل باستيفاء عناصر السنة، وفي وقت لا يتعدى رحلة الاستكشاف، فإن نفاذ السنن الاجتماعية يتم ببطء تبعا لطبيعة تركيب السنة الاجتماعية المتشابكة. ومن هنا فإنه ليس بمقدور أحد من الناس أن يقرر وقت ظهور النتيجة، ولو توفرت جميع أسبابها، لأن نفاذ السنن الاجتماعية تحكمه سنة أخرى هي سنة الأجل، والتي ذكرها القرآن الكريم في اثني عشر موضعا، منها قوله جل وعلا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: 34)، وقوله عز من قائل: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (4) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (5)﴾(الحجر)، وقوله جل ثناؤه: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ (الكهف: 59).

فهذه الآيات وغيرها تجعل آجالا لتلك الأمم الظالمة، ولكن مجيء هذا الأجل لا يعلمه إلا الله تعالى، فهو آت لا محالة، وعدا من الله الذي لا يخلف الميعاد.

ومن هنا فالفرق الدقيق بين السنن الكونية والسنن الاجتماعية هو أن الأولى أسبابها واضحة بينة منضبطة بالزمن والمواصفات، إذا عرفناها أمكننا الحكم بدقة على نتائجها وتحديد عمر مواقيت هذه النتائج.

أما الإشكالية الحقيقية فهي في الأسباب الاجتماعية بمختلف أنواعها: سياسية اقتصادية، وحضارية عمرانية، نصر وهزيمة، ونهوض وسقوط.. فهي أسباب خفية دقيقة وكثيرة ومتشعبة ومتشابكة، وقد يصعب على الكثير الإحاطة بها تفصيلا، لكن مع هذه الصعوبة يمكن للمتأمل المتفحص الدقيق أن يكتشفها ويتعرفها ويحيط بها، كما يمكنه الجزم بحصول نتائج معينة بناء على أسباب معينة، وإن لم يمكن الجزم بميعاد حصول النتائج، لذلك نستطيع أن نحكم على وجه الجزم واليقين بزوال الظلم عند تفشيه وتكشيره عن أنيابه، والخروج من الأزمات عند الشدائد، وارتفاع البلاء والوباء عند نزوله (سنن الاجتماع)، وإن كنا لا نستطيع تحديد وقت زواله بالضبط كما هو حال الأمور المادية (سنن الكون).

ومن أجل هذا الفرق بين سنن الكون وسنن الاجتماع، يغفل الناس كثيرا عن سنة الله في الاجتماع البشري وفي تصرفات الأفراد وسلوك الأمم ويظنون أن أمورهم لا تخضع لسنن كما تخضع الظواهر الكونية.

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن السنن الكونية المادية تترتب نتائجها بسرعة ووضوح بعد فعل المقدمات، لدرجة تكون صارمة كالمعادلات الرياضية، بينما السنن النفسية والنواميس الاجتماعية قد تتخلف نتائجها السريعة وقد يمضي جيل أو أكثر دون إدراكها أو إبصارها، لذلك فهي عصية عن الإدراك السهل؛ لأن مقدماتها ترتبط بالعواقب البعيدة وليست النتائج القريبة؛ لذلك نرى القرآن الكريم يتحدى بالعواقب وليس النتائج شأن السنن الكونية، ذلك بأن النتائج القريبة في سنن الأنفس والاجتماع قد تكون

من المقدمات، فالعاقبة قد تكون بعيدة الحصول، وإلا فما معنى أن تستمر الحالة الفرعونية ورموز الاستبداد السياسي قرونا قبل أن تسقط وتصبح عبرة بما انتهب إليه من عواقب؟! [1].

إن فهم نفاذ السنن الاجتماعية وفق سنة الأجل يجيب عن كثير من الأسئلة الحائرة التي لا تجد تفسيرا لأمم قائمة على الظلم والبغي والطغيان والاستبداد والفساد والعدوان، ثم هي لا تزال قائمة قوية، وربما شك بعضهم في سنة إهلاك الظالمين، وغاب عن هؤلاء أن هذا الإهلاك لا يتم فورا وبحساب الأيام أو السنوات، ولكن بأعمار الأمم لا الأفراد[2].

وغاية المرام في تحقيق المقام: إن السنن الإلهية بنوعيها (الكونية والاجتماعية) تنبثق عن منهج إلهي واحد، وتخرج من مشكاة إلهية واحدة، مرتبطة أشد الارتباط في وحدة نظامية يأخذ بعضها بحجز بعض، في تكامل وانسجام وتناسق وانتظام.

خلاصة:

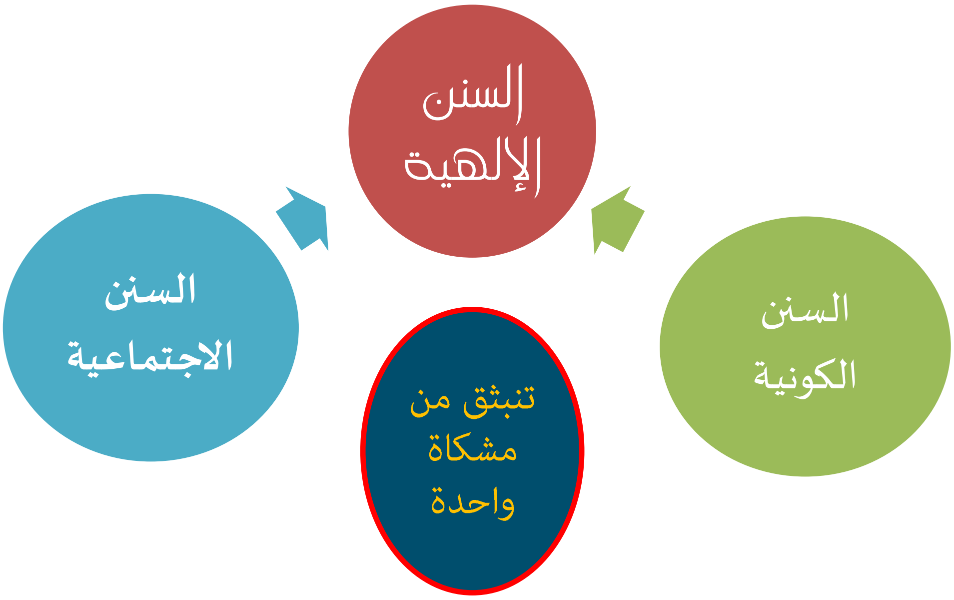

(1) انظر: المنهج السنني أفق حضاري متجدد، عمر عبيد حسنة، ص17-19.

(2) انظر: سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفه، ص71 وما بعدها.

المحور الثاني

آثار مراعاة السنن الإلهية الكونية والاجتماعية

إن الحديث عن السنن الإلهية يعد منارة للمسلم اليوم في ظلمات هذا العصر بما فيه من تعقيدات ومعضلات، يكون فيها المسلم حيرانًا، غير أن المسلم الواعي الذي يتعهد كتاب ربه بالقراءة والعناية والتدبر والفهم هو وحده الوحيد القادر على أن يكون واعياً ومستوعباً لكل ما يجري في هذا الكون من أحداث [1].

وتتجلى أهمية معرفة السنن الإلهية في كونها من الواجبات الدينية والضرورات الشرعية؛ لأن معرفتها تمكننا من إدراك الكثير من الأحكام التكليفية وعللها، وما انبنت عليه الشريعة الغراء من العدل المحض.

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان-رحمه الله-: "إن معرفة سنن الله جزء من معرفة الدين أو لمعرفة جزء من الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه، ونظفر بما وعد الله عباده المؤمنين المتقين" [2].

كما تتجلى أهميتها في أنها تبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس أتباع هذا الدين الإلهي، فضلا عن تقديم رؤية شمولية لتاريخ البشرية من خلال تقديم تفسير صحيح له، وبيان أسباب الرقي والاندثار فيه، حتى يكون الإنسان قادرًا على الاعتبار من التاريخ، والاستفادة من التجارب الناجحة فيه، سعيا للوقاية الحضارية وتحقيق الشهود الحضاري.

وعليه، فإن مستقبل العمران البشري الذي ترنو إليه الأمة المسلمة وتشرئب له الأعناق لن تصل إليه الأمة إلا بتسخير هذه السنن الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية والعمل بمقتضاها.. وإن أول طريق يمر عبره هذا التسخير هو الكشف عن السنن الإلهية التي نبه عليها القرآن الكريم، وحث على إدراكها والإحاطة بها والتوسع في معرفتها بتفاصيلها وجزئياتها، والأخذ بها، والسير على سكتها..

ذلك بأن فقه السنن الإلهية "لا يشكل لنا وقاية من الأزمات والإصابات التي يمكن أن تلحق بنا بسبب جهلها أو تجاهلها ومحاولة تجاوزها وحسب، وإنما فقه السنن يشكل لنا دليلا للتعامل مع الأزمات وكيفية إدارتها بعد وقوعها، وتجنبها قبل وقوعها" [3].

ومن هذا المنطلق فإن تعرف السنن الإلهية هو السبيل الأمثل لفهم الظواهر الاجتماعية وحركة التاريخ وفاعلية الإنسان فيه، وبقاء الأمم واندثارها، وهو المهيع الصحيح لفهم الحياة المعاصرة، ووضع الخطط الناجحة للخروج

---

(1) "السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل"، عماد عبد الكريم خصاونة وخضر إبراهيم قزق، مجلة المنارة للبحوث والدراسات ، المجلد 15، العدد 2، 2009م، ص 215 .

(2) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص17.

(3) المنهج السنني، ص74.

من الركود والعجز الحضاري وتصحيح المسار والرقي إلى مكان الصدارة والريادة، وتحقيق الدورة الإنجازية الكبرى والشهود الحضاري..

إن فقه السنن الإلهية والتعامل معه بوعي وعلى بصيرة من شأنه أن يخلص الأمة من أغلال الذرائعية، وقيود الاتكال، وآصار الفكر الإرجائي، وأن يسددها على سكة الصواب ويبعث فيها روح الحيوية والانبعاث من جديد.

يقول الأستاذ إبراهيم بن علي الوزير: "إن في تاريخ كل أمة منعطفا يتاح فيه للأمة تغيير مجرى حياتها بتأمل السنن وفهمها ودراستها والاستفادة منها للخروج من وهنها وضعفها وضياعها بين الأمم.. إلى مكان عزيز منيع .. فإن لم تستفد من هذا المنعطف التاريخي فإن قوارع الآيات وعجائب النكالات تنزل بها متدفقة عليها من كل جانب، آخذة عليها كل سبيل حتى تنقرض وتزول أو يستقيم ما بنفسها فيصلح أمرها" [1].

ولقد دعا الإمامُ النورسي –رحمه الله– المسلمين دعوةً صريحة إلى تسخير ما بث الله في الكون من سنن من أجل تحقيقِ نهضة حضارية رائدةٍ وانبعاث إسلامي جديد، يقول –رحمه الله– مبينا أثر السنن في نهوض الأمم وسقوطها: "فكما أن هناك طاعة وعصيانا تجاه الأوامر الشرعية المعروفة، كذلك هناك طاعة وعصيان تجاه الأوامر التكوينية. وغالبا ما يرى الأول مطيع الشريعة والعاصي لها جزاءه وثوابه في الدار الآخرة. والثاني مطيع السنن الكونية والعاصي لها غالبا ما ينال عقابه وثوابه في الدار الدنيا.

فكما أن ثواب الصبر النصر، وجزاء البطالة التقاعس والذل والتّسَفُّل، كذلك ثواب السعي الغنى. وثواب الثبات التغلبُ"[2].

ويضيف في موضع آخر: "إن من يشق طريقا في الحياة الاجتماعية ويؤسس حركةً، لا يستثمر مساعيه ولن يكون النجاح حليفه في أمور الخير والرقي، ما لم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله في سبيل التخريب والشر"[3].

يقرر الإمام النورسي في هذا النص العجيب أن أيّ محاولة للتغيير الاجتماعي تتنكب سنن الله تعالى فمآلها الفشل الذريع...

هكذا يربط الإمام النورسي بين حركة الإنسان نحو التغيير والنهضة الاجتماعية وسنن الله تعالى في الوجود، هذا الربط الذي من شأنه أن يعمّق النظر ويرسم المنهاج المستقيم في اكتشاف ما في الكون من سنن ثابتة ومطردة، وربطها بقوانين التشريع الاجتماعي، لتحقيق النهضة الشاملة لحضارة الإسلام في ظل الواقعِ المعاصر.

إن الإمام النورسي يؤكد ويقرر أن الوعي بالسنن الإلهية وتسخيرها والسير على هداها هو المدخل الرئيس والمنطلق الصحيح لنهضة الأمة وسياسة الرعية، داعيا دعاة التغيير إلى الإحاطة بالسنن الإلهية في التغيير والنهوض قبل العمل والإنجاز، قياسا على سنن الله التي تحكم حركة الكون بمفرداته كلّها، وتنظّمها في ميزان متراصٍّ.

---

(1) دراسة في السنن الإلهية والمسلم المعاصر، ص11.

(2) الكلمات، ص872.

(3) اللمعات، ص257.

فبدون معرفة بسنن الاجتماع، وسنن الكون، لا يمكن لحركات النهوض والتغيير أن تستأنف عملا إصلاحيا سديدا، بل ستقذف جهودها إلى صحراء العدم.

فلا ريب إذن أن يؤدي عدم التعامل مع سنن الله بشكل صحيح، وإغفالها وعدم إدراك كنهها، والتقصير المعرفي بها إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعيهم، وتعثر خطواتهم في طريق البناء والرقي والصيرورة الاستخلافية والشهود الحضاري.

ولذلك يعتبر الزيغان عن منهاج السنن الإلهية، والعدول عن كشف ما تتضمنه من عبر وعظات ونواميس مطردة تأخذ بيد الأمم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة وتنأى بها عن السقوط في المهاوي والزلات، وتوجيه البحوث لدراستها واستنباطها والاستفادة من الوقوف على معطياتها مما أورثنا التأخر عن الركب الذي نعيشه ونعاني منه.

فالسنن الإلهية هي التي تسير حركة التاريخ وتفسر أحداثه، وفق مسالك مقننة لا سبيل للخروج عنها. والمتدبر لآيات القرآن الكريم يجده حافلا بالحديث عن هذه السنن، وقد بينتها السنة المطهرة الصحيحة في مواطن كثيرة.

فواجب على الإنسان المسلم أن يفقه سنن الله فقها شاملا واعيا يهدي إلى سبيل الرشاد، ينفع الأمة ويكشف الغمة، وعلى ضوئها وفي نوره يبني مجتمعه العمراني الإسلامي ويستنبط منهاجه[1].

يقول سيد قطب –رحمه الله– داعيا إلى مراعاة السنن الإلهية وإعمالها: "فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول"[2].

ويقول الإمام محمد عبده–رحمه الله–: "إن نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لا يتغير ولا يتبدل، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع أن ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد إليها أعماله، ويبني عليها سيرته، وما يأخذ به نفسه، فإن غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن إلا الشقاء، وإن ارتفع إلى الصالحين نسبه، أو اتصل بالمقربين سببه، فمهما بحث الناظر وفكّر، وكشف وقرّر، وأتى لنا بأحكام تلك السنن، فهو يجري مع طبيعة الدين، وطبيعة الدين لا تتجافى عنه، ولا تنفر منه، فَلِمَ لا يعظم تسامحها معه"[3].

إذن، فالكون تحكمه سنن الله تعالى التي ارتبط رقي الإنسان بمعرفتها وتسخيرها، فهو لا يستطيع أن يمارس حريته إلا في نطاق نظام الكون المحيط به، كما أنه لا يستطيع أن يغير سننه وقوانينه، وإنما يستطيع أن يستثمرها ويسخرها ويستفيد منها وحسب، والسير في الكون على نظام وفقاً لسنن معينة في تقديراتها الكمية والكيفية، هو القدر أو هو من القدر.

---

(1) سنة الله في جهاد سيدنا رسول الله ﷺ، رشيد كهوس، ص8.

(2) في ظلال القرآن، 1/450.

(3) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، مجلة المنار، 16 جمادى الآخرة – 1320هـ، المجلد الخامس، ص443. أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام، جوهري طنطاوي، طبع مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1354هـ/1935م، ص18.

فالله تعالى هو جعل للحياة والكون نظاما وسننا وهو مسخر الأسباب، والوصول إلى هذه الأشياء بسعي الإنسان، وكل شيء حسن بهذا الاعتبار؛ لأنه مظهر الإبداع والنظام. ولا يقع الإنسان في شيء يسوءه إلا بتقصير منه في استبانة الأسباب وتعرف السنن، وقد أوتي قدرة على العمل اختيارا في تقدير الباعث الفطري وما يترتب عليه من درء المضار وجلب المنافع.

فينبغي لمن أصابه سوء أن يبحث عن سببه من نفسه، وألا يكتفي بإسناده إلى غيره؛ لأن السيئة تصيب الإنسان بتقصيره وخروجه عن سنة الله في التماس المنفعة من أبوابها، واتقاء المضار باتقاء أسبابها؛ لأن الأصل في نظام الفطرة البشرية هو ما يجد الإنسان في نفسه من ترجيح الخير لها على الشر، والنافع على الضار[1].

لهذا صار من اللازم تتبعُ آيات القرآن الكريم واستنطاقها، وتقصي مفرداتها، وتثوير معانيها للوقوف على هذه السنن، تمهيدا للخروج بتصور شامل عن المعرفة القرآنية في مجال علم السنن الإلهية.

والقرآن الكريم معجزة خالدة في بيانها وتشريعها وأحكامها ومبادئها وتعاليمها وحقائقها العلمية، وحقائقها التاريخية الخبرية، وتنبؤاتها المستقبلية. وتتجلى أهمية السنن الإلهية في القرآن الكريم في إرشاده العباد إلى سنن الله في تهذيب النفس وبناء الإنسان والمجتمع والأمة والعمران، وسنن النجاة والفلاح، كما يبين لهم سنن الشقاوة والعذاب والضلال وهلاك الأمم واندثار المجتمعات ليتجنبوها..

ولعل تدبر آيات القرآن الكريم وفق هذه الرؤية الشاملة الكاملة يجعلنا نقف على المنهاج القرآني لكيفية التعامل مع الحياة الإنسانية من جوانبها كلها، ويقصر الطريق أمامنا عن طريق الاستفادة مما وقع للأمم الغابرة من ازدهار وانهيار، وقيام وسقوط، من أجل العمل وفق سنن النهوض، وتجنب سنن السقوط..

وإن الأمة التي لا تعرف هذه السنن، ولا تسعى لفهمها والتفقه فيها وأخذ الدروس والعبر منها، أمة غير مأمونة العثار، ولن تنجح في خطواتها، ولا في بناء مستقبلها.

والجدير بالذكر هنا أننا من خلال السنن الإلهية يمكن أن "نفسر الإصابات والارتكاسات، وتوالي الهزائم، واستمرار السقوط، والانحدار، والانكسار، والتراجع، الذي يمنى به العالم الإسلامي والمسلمون بشكل عام"[2].

ومن شأن هذه السنن أيضا أن توقفنا على مقومات النهوض، وأن تساعدنا على إدراك المقاصد وإبصار المخارج وتحصيل المؤهلات وامتلاك الوسائل في مسيرتنا العمرانية، ومن شأنها أن تمكننا من تصويب الحاضر وإدراك أسباب تغيير المجتمع إلى الارتقاء أو الارتكاس للاهتداء إليها والاتعاظ بها لبناء المستقبل ولتحقيق الوقاية الحضارية[3].

وتأكيدا لضرورة العمل بمقتضى السنن الإلهية وتسخيرها، يقول الشيخ محمد الغزالي –رحمه الله-: "أصبحنا نسمع بضرورة الإفادة من هذه السنن، بل لعل ذلك أصبح قناعة عند الناس بشكل عام، لكن هذه القناعة لم تجد طريقها إلى الممارسة، ولم تنتقل بمواقعنا إلى مراحل تغييرية (...) ولو أخذت أبعادا حقيقية لكانت الأمة

(1) انظر: مبدأ السببية في الفكر الإسلامي في العصر الحديث، محمود نفيسة، ص517. وتفسير المنار، رشيد رضا، 218/5. ونظام الإسلام العقيدة والعبادة، محمد مبارك، ص83.

(2) من فقه التغيير، عمر عبيد حسنة، ص94.

(3) رؤية في منهجية التغيير، عمر عبيد حسنة، ص30.

انتقلت من الفكر إلى الفعل، فالتحول وإعمال السنن هو المختبر الحقيقي لإدراكها والقناعة بها. إن هذه القضية لم تشكل مناخا عاما يعيشه المجتمع، أو لم تحفر بعد في واقع الأمة المجرى المطلوب لسيرورتها"[1].

ويقول الدكتور محمد أمحزون: "لقد وجّه القرآن الكريم المسلمين نحو الوعي بما لم الشهادة، فحثهم على النظر والتدبُّر والاستقراء للكشف عن قوانين المادة وسنن الاجتماع، كما نبَّه إلى أهمية تعرُّف السُّنَن التاريخية، والإفادة من ذلك في الاعتبار، وبناء الحضارة وكيفية المحافظة عليها من السقوط، وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه السُّنَن فذكرها نصاً في بعض الأحيان، ولم يذكرها أحياناً أخرى نصاً؛ وإنَّما فُهمت مِن النَّص دلالةً وفحوى، وذكرها تارةً مضافة إلى الله –تباركت وتقدست أسماؤه–، وذكرها تارةً أخرى مضافةً إلى أقوام.

(...) ومن خلال السُّنَن في كتاب الله تعالى، وسنن رسوله ﷺ؛ نفهم التاريخ على حقيقته، ونعرف عوامل البناء، والأمن، والاستقرار، والتقدم، وعوامل الهدم، والخوف، والانحطاط، والتخلُّف... ومن هنا تأتي أهمية ربط عمل الدُّعاة بالجهد والعمل وفق السُّنَن التي لا تحابي فرداً على حساب فردٍ آخر، أو مجتمعاً على حساب مجتمع آخر"[2].

وخلاصة القول: إن السير في الدنيا دون الوقوف على شيء من علم السنن ضرب في متاهة، ومشي في غياهب الظلم بلا دليل يقود، ولا هاد يرشد، ولا صاحب يدل؛ لأنه فَقْدٌ لاستصحاب جزء من المعرفة التي يترتب عليها الإعداد لكل نازلة، أو الإفادة من كل منحة..[3].

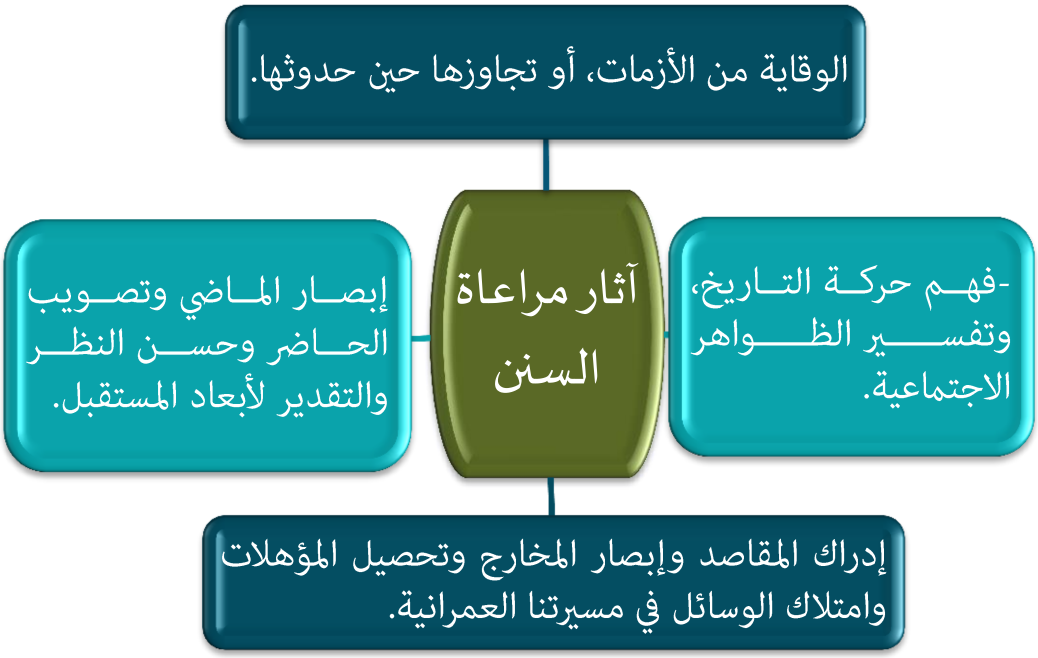

---

(1) كيف نتعامل مع القرآن، ص53.

(2) "العلم بالسنن الربانية"، محمد أمحزون: مجلة البيان، العدد 115، يوليو 1997م، ص 50.

(3) فقه السنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها قراءة في فكر الإمام محمد عبده، رمضان خميس زكي الغريب، ص39.

المحور الثالث

بواعث العناية بالسنن الإلهية

للاهتمام بالسنن الإلهية عدة بواعث نذكر منها:

1) **العبودية.**

قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]. وقال عز من قائل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56)﴾[النور].

إن الإنسان مستخلف في الأرض، يجب عليه البحث عن كل الأسباب التي تجعله أهلا لهذه الخلافة، وأول هذه الأسباب وأعظمها هو أن يحقق العبودية الكاملة لله تعالى التي يتوقف عليها مصير الإنسان الأخروي، بل هي شرط تحقيق الإنسان لأعلى درجات حريته وكرامته وإنسانيته. هذه العبودية تتحقق بمعرفة سنن الله تعالى وقوانينه التي بثها في هذه الحياة للسير على منهاجها واستعمالها والعمل بمقتضياتها.

إن معرفة الإنسان بهذه السنن الإلهية التي تحكم الحياة البشرية؛ والوقوف على آثار صنعة الله تعالى في حياة الأمم والجماعات والحضارات، وكيف حقت عليها كلمة الله، وكيف مضت عليها سننه، وحصدها قانونه على غفلة من الناس، تملأ قلبه إجلالًا وتعظيما وتوقيرًا لله جل في علاه، فيقبل على ربه فيعبده حبا وخوفا ورجاء.

2) **التسخير.**

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 13].

إن واقع المسلمين اليوم وتخلفهم عن الركب الحضاري، وتدهور أوضاع مجتمعاتهم إنما يُعزى إلى جهلهم بالسنن الربانية؛ ولا سبيل إلى التقدم والنهوض واستئناف الدورة الإنجازية وتحقيق الاستخلاف في الأرض إلا بفقه السنن الربانية، وحسن التعامل معها، وإتقان تسخيرها واستعمالها.

وحين يتفقه العقل المسلم في هذه السنن الإلهية يصبح أقدر على فهم العالم حوله كما يصبح أقدر على تسخير الكون في صالحه. وصدق الله تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (12) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (14)﴾[سورة النحل].

ومن هنا فإن الإدراك العميق بأن كل شيء في هذا الوجود يسير وفق سنن الله تعالى التي لا تنخرم ولا تحيد، وتوظيف هذا الإدراك إلى واقع العمل، حينئذ سيكون الإنسان قادرًا أن يسير على المهيع الصحيح بفقه الوحي الرباني مسترشدا بفهم آياته وغاياته، معتبرا بمن سبقه من الأولين، مستفيدا من كل آليات الحياة ومسخرا لها لتحقيق بناء الذات، والحفاظ على الكيان.

يقول إبراهيم بن علي الوزير: وبقدر إحراز أية أمة لفهم أكبر لتسخير السنن الكونية والاستفادة منها، وتطبيق أدق لها، تتبوأ مكانتها على الأرض. وبقدر نقصها في الفهم والعمل بموجبه وتقصيرها في اللحاق بالحقائق الثابتة، ينعكس على سيرها سلبا وإيجابا"[1].

ولذلك فإن الإعراض عن تسخير سنن الله تعالى التي يسرها وذللها وسهلها للإنسان تجعل هذا الإنسان يفقد "ميزاته الأساسية، وأمانته التي حمله الله إياها، والسلطان الذي أعطاه الله تعالى له، لتسخير ما خلق الله له. ويصير هذا الإنسان المكرم في أسفل سافلين، بل يصير نفسه مسخراً للذين يعلمون سنن الله"[2].

3) عمارة الأرض.

إن دراسة السنن الإلهية لها أهمية بالغة في هذا العصر الذي تمر فيه الأمة المسلمة بأحلك فتراتها التاريخية؛ حيث تكالب عليها الأعداء من كل حدب وصوب، وتعقدت أوضاعها الاجتماعية، واستفحلت المشكلات بديارها... مما يستدعي مزيدا من الاهتمام بكل ما من شأنه أن يوصل إلى معرفة عوامل هذا الظلام الذي خيم على سمائها، والخطوب التي حلت بمنازلها، والأسباب الكامنة وراء تلك الظواهر العديدة التي تجتاح المسلمين وحياتهم، وتحول دون رقيهم وتقدمهم وازدهارهم..

والمهيع الموصل إلى معرفة تلك العوامل والأسباب هو السنن الإلهية التي تضبط حركة الحياة؛ لكونها اشتملت على كل ما يتعلق بالنفس الإنسانية وبحركات المجتمعات البشرية وفاعلية الإنسان فيها.

فهذه السنن الإلهية المبثوثة في الكتاب المسطور (القرآن) والكتاب المنظور (الكون)، وفي السنة النبوية، بها حقق الرعيل الأول انتصارات خارقة وفتوحات في مشرق الأرض ومغربها ومنجزات عمرانية؛ لأنهم كانوا مدركين لهذه السنن مهتدين بها، عاملين بمقتضاها.. ولا تزال تجربتهم التي استضاءت بنور السنن الإلهية عامة والسنن الاجتماعية خاصة المثال والأنموذج الذي تهدف مشاريع الإصلاح والتغيير عبر التاريخ إلى إعادة إنتاجه أو احتذائه على الأقل.

ولا يمكن تحقيق ما حققوه من منجزات عالية الدقة على كل المستويات وفي كل جوانب الحياة، إلا بالاستناد إلى تلك السنن الإلهية الكونية والاجتماعية الحضارية الصارمة التي استندوا إليها، واستعملوها

---

[1] على مشارف القرن الخامس الهجري-دراسة للسنن الإلهية والمسلم المعاصر، ص8.

[2] حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص225.

وقاموا بتسخيرها.. بعيدا عن الجبرية والقدرية والتواكلية والمعطلة وغيرها من الفرق التي تنكبت منهاج السنن، مما كان له انعكاسات خطيرة على كيان الأمة تسرب من خلاله الضعف والوهن إليها..

وهكذا تنقلنا السنن الإلهية من الهداية الفردية إلى الفعل الحضاري؛ أي تجعل قراءتنا لكتاب الله المسطور (القرآن الكريم) مقترنة بقراءة كتاب الله المنشور (الكون) بمختلف أبعاده ومكوناته، إذ إن هذا الكون هو مجال تطبيق الهداية البشرية ومحور الاستخلاف والعمران الذي يهدف إليه القرآن. فكل قراءة للوحي منفصلة عن العلوم الكونية (سنن الكون) ستؤدي إلى الانفصام بين الدنيا والآخرة ومن ثم إلى تعطيل مهمة الإنسان في الكون فتكون الهداية المحصلة منغلقة عن الذات، أنانية، مخالفة للهداية القرآنية المنفتحة التي تعطي ثمارها الطيبة للإنسانية جمعاء.

4)–الباعث السببي.

ذلك بأنه من خلال هذه السنن الإلهية يمكن معرفة أسباب ما يعترض العمل الإسلامي من عقبات كأداء من حين لآخر، ويمكن أن نفسر ما أصاب الأمة المسلمة من الارتكاس والانتكاس والانكسار التاريخي والتراجع الحضاري، وتوالي الهزائم عليها، وانتهاك الأعداء لحرماتها وحماها، والانحدار إلى مهاوي التبعية، واستفعال المرض الغثائي في كيانها... وتحولها من مركز القيادة والريادة والسيادة فاعلة في المجتمع مسخرة للكون صانعة للتاريخ إلى أمة متخلفة عن الركب الحضاري، تنتظر سننا خارقة للعادة، أو تعلق هزائمها ومآسيها على القدر..

ومن شأن هذه السنن الإلهية أيضا أن توقفنا على دعائم النهوض ومقوماته، وعوامل التمكين وأسبابه، وأن تساعدنا على إدراك المقاصد وإبصار الحلول وتحصيل المؤهلات وامتلاك وسائل النجاح في مسيرتنا العمرانية، ومن شأنها أن تمكننا من تصويب الحاضر وإدراك أسباب تغيير المجتمع والرقي به للاهتداء إليها والاتعاظ بها لمعالجة أمراضنا وبناء مستقبلنا.

إن التجديد الحضاري الذي تشرئب إليه الأعناق وترنو إليه الأمة لن تراه الأمة على أرض الواقع إلا بفقه السنن وتسخيرها وإبصار آيات الله في الآفاق والأنفس: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[الأنعام: 104].

ولا يتحقق ما ذكرناه إلا بالكشف عن هذه السنن الإلهية ودراستها والتوسع في معرفتها بكلياتها وجزئياتها، ومقاصدها وحكمها..

إنه ذلك المنهاج الذي يمدنا في مسيرتنا العمرانية بالأسس والمقومات والمواقف والإشارات، ويخولنا الاستفادة من تجارب الأمم الغابرة وأخذ العبرة من عواقب الأمم البائدة، ويوفر علينا جهدا كبيرا ووقتا طويلا كان بالإمكان تضييعهما إذا نحن غفلنا عن السنن ولم نلتفت إلى التجارب التاريخية.

يقول سيد قطب–رحمه الله–: "فكل الرسالات جاءت لتقر في الأرض وفي حياة الناس ميزانا ثابتا ترجع إليه البشرية لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال، وتقيم عليه حياتها في مأمن من اضطراب الأهواء

واختلاف الأمزجة، وتصادم المصالح والمنافع. ميزانا لا يحابي أحدا لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع.

هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات والخلخلة التي تحيق بها في معترك الأهواء ومضطرب العواطف، ومصطخب المنافسة وحب الذات؛ فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة. ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾.. فبغير هذا الميزان الإلهي الثابت في منهج الله وشريعته لا يهتدي الناس إلى العدل، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء!.." [1].

وبناء على ما تقدم؛ فلا ينجلي الفهم السديد للقرآن الكريم، إلا من خلال الترابط الوثيق بين ما هو مقروء في القرآن الكريم مما عهد به الله لكل شيء في هذا الوجود، لا ينفك عنها منفك، وبين ما يجري في الكون والآفاق من أحداث وظواهر، لا يفسرها أوضح تفسير وأبينه إلا السنن الإلهية.

لقد جاء المنهاج القرآني ممثلا في السنن الإلهية لينقل المجتمعات البشرية إلى أفق واسع رحب، ويحدد لها منهاجا للنظر والاستقراء والاستدلال في معالجة حركة التاريخ البشري والفعل الاجتماعي والسلوك الإنساني في الماضي والحاضر والمستقبل، ويحدد نسق الترابط بين المقدمات والنتائج، وبين الأسباب والمسببات، وبين العلل والمعلولات، وبين المراحل والأطوار...

والقرآن الكريم لا يزاحم العقول ولا يعوض التجارب في اتخاذ الوسائل المناسبة، ولكنه يبين الغايات منها، وارتباطها بالله تعالى، وكيفية تسخيرها لصالح الإنسانية، ويضع سدا منيعا في وجه الأفكار والفلسفات التي تنحرف بالإنسان والمجتمع والكون عن غايات وجودهم، ويتحداها بأنها لن تحقق سعادة الإنسان خارج دائرة السنن الإلهية التي بثها الله في الكون والحياة الإنسانية والاجتماع البشري، كما يؤيد التجارب الاجتماعية والعلمية والنفسية لكونها محكا يمكن للإنسان أن يحصل من خلالها معرفة سننية وحقائق كونية قررها الوحي (القرآن والسنة)، فهي تجارب بشرية تصدق الوحي بما تسفر عنه من نتائج وقواعد وسنن في ضوئه وعلى نوره، وتكشف عن الكثير من الجزئيات، أشار الوحي إلى غاياتها فقط..

أضف إلى ذلك أن القرآن الكريم يدعو الناس إلى السير في الأرض للبحث والاكتشاف والنظر في غور التاريخ وأحوال الأمم؛ للوقوف على ما قرره سلفا من سنن ربانية في الآفاق والأنفس تحكم حركة التاريخ والمجتمعات والأمم والوجود بأسره: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: 20). ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: 10].

---

[1] في ظلال القرآن، 3494/6.

والحاصل أن المشكلة التي يعاني منها العقل المسلم اليوم هي مشكلة العجز عن السير في الأرض للوقوف على سنن الله الكونية والاجتماعية، وكأن الله خلق عقولنا لنعطلها عن التدبر والنظر في الكتاب المنظور، حتى وصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم من الانحسار الحضاري، والتخلف العالمي في شتى الميادين..

ثم إن المشكلة الأخرى هي مشكلة العجز عن التعامل مع السنن الإلهية، والانتفاع بها في مسيرة الحياة البشرية، هذه السنن التي تعبر عن خلود الرسالة الإسلامية وقدرتها على العطاء المتجدد، المجرد عن حدود الزمان والمكان؛ لحل المشكلات الإنسانية والاجتماعية..

ولنا في السيرة النبوية العطرة أسوة وقدوة؛ فهي حافلة بالشواهد الناصعة على توظيفه ﷺ للسنن الإلهية في أيامه الخالدة وتصرفاته اليومية، مما كان له نتائج ظاهرة وباهرة في غضون أعوام قليلة، لم تثمر مثله محاولات بشرية أخرى استغرقت قرونا طويلة.

وغاية المرام: إنه بالعناية بالسنن الإلهية يحصل المسلم على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، وبها يدرك القوانين التي تحكم الكون والحياة، وبذلك يتذوق روح الإسلام ومقاصده السامية..

وهكذا يتضح لنا أن الاهتمام بدراسة السنن الإلهية لم يأت من فراغ، وإنما لبواعث عديدة وأسباب قوية، لا يمكن تجاهلها أو غض الطرف عنها..

خلاصة المحور:

بواعث العناية بالسنن:

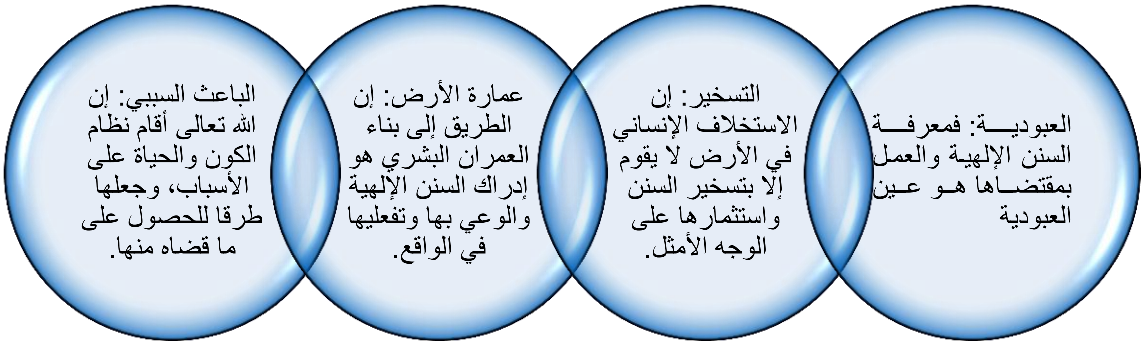

المحور الرابع:
خصائص السنن الإلهية

إن خصائص السنن الإلهية تحدد شكل مسارها، وتبين كيف تسير هذه السنن عبر وسائل مضبوطة، فلا يمكن –مثلا– فهم سنن الله بعزلها عن ربانيتها، ولا يمكن فهمها كذلك دون وسطيتها...

والكون كله يسير وفق سنن إلهية كاملة لا تبديل لها ولا تحويل، فليس هناك شيء واحد في هذه الحياة يحدث اعتباطا وعشوائية، وإنما يجري كل شيء فيها وفق سنن الله تعالى التي لا تنخرم ولا تحيد، ولا تتخلف، ولا تحابي أحدا من الخلق، ولا تستجيب لأهواء البشر وطموحاتهم الشخصية، ومآربهم الفانية.

وعليه، فما دام هذا الكون بما فيه خاضعا لسنة الله تعالى، وما دامت سنة الله هي قدره الذي على مقتضاه يدبر ملكه، فإن لها خصائص ربانية تبين عدالتها وجريانها على جميع الكائنات، واستمرارها على مدى الأزمان.

تلك الخصائص وإن تعددت وتنوعت فإنها تنبثق من خصيصة الربانية وترجع إليها، ذلك بأن القوانين البشرية التي يسطرها البشر لأنفسهم بعيدا عن هدي الله عز وجل تحتاج دائما إلى المراجعة والتطور وإعادة الصياغة والتحرر من قواعدها ومقوماتها، تتعرض هذه القوانين لكل هذا لأنها من صنع البشر. أما سنن الله تعالى وناموسه الكوني فثابت لا يتغير وضوابطه لا تتعطل ولا تتحول، لأنه ينبثق من مشكاة إلهية من فعل الله وأمره.

فهذا الكون بما فيه يخضع لنظام عادل وضوابط ربانية، فكل شيء يدور في فلكه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(سورة الفرقان: من الآية 2)، فلابد لكل شيء من فلك يدور فيه، ولا بد لهذا القانون من ضوابط وإلا انتهى الأمر إلى الفوضى وإلى الدمار.

ومن ثم كانت سنن الله تتسم بالربانية لا يعتريها النقص ولا التغير ولا التطور فهي صالحة لكل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فأول تلك الخصائص:

1 –الربانية.

إن كون السنن الإلهية ربانية يميزها عن باقي التصورات الفلسفية والمعتقدات الوثنية التي ينشئها الفكر البشري وتصوراته الخيالية. وكون سنن الله ربانية المصدر، يعني أنها مرتبطة بالله تعالى. منه تستمد وبنوره تستضيء، وهذا ما يفرغ عليها قدسية لا نظير لها، لأن هذه السنن صادرة من صاحب الخلق والأمر في هذا الكون، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(الأعراف: 54)، ولم تصدر من البشر الذين يحكمهم القصور والعجز، والتأثر بمؤثرات الزمان والمكان.

ونفهم من هذه الخصيصة أن الله تعالى وتقدس هو المدبر الحقيقي لهذا الوجود بمشيئته المطلقة، وتدبيره الحكيم.

إن تأكيد القرآن ربانية السنن وطابعها الغيبي يهدف إلى ربط الإنسان -حتى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون- بخالقه سبحانه وتعالى.

وهذه الربانية التي تتميز بها سنن الله تعالى، هي عكس ما يعتقده اتجاه التفسير اللاهوتي للتاريخ الذي تمثله مدرسة المفكرين اللاهوتيين النصارى.

وهذا يبين لنا الفرق الشاسع والبون الواسع بين الاتجاه القرآني في ربط سنن التاريخ بعالم الغيب، وبين ما يسمى بالتفسير الإلهي للتاريخ الذي يتبناه اللاهوت.

إذن: فالسنن الإلهية خاضعة لعناية الله تعالى ورعايته، فهو الذي يسيّر المكوّنات كما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

وعليه؛ فإن "خصيصة الربانية في السنن تعطيها البعد الإيماني، حين تربطها بخالق الأقدار والأسباب، وتفسح مجالا للجانب الغيبي في صنع الأحداث، وتضع حدا فاصلا بين التفسير الإسلامي للتاريخ والتفسيرات الأخرى سواء منها الدينية اللاهوتية أو الوضعية المادية...

أما البعد الإيماني: فيتجلى في قدرية السنن، وأنها من أدلة التوحيد التي بثها الله في هذا الكون الفسيح، ثم دعا الناس إلى تدبر تناسقها ونظامها واطرادها، من أجل ذلك دأب القرآن الكريم على ربط موضوع السنن بالإيمان، فسماها (سنة الله)، و(كلمات الله)، و(أمر الله)، كل ذلك ليظل الإنسان مشدودا إلى مصدر هذه السنن، وأن الاستفادة منها لا تتم بمعزل عن ربانيتها، ومن هنا تغدو في حس المؤمن إرادة الله وحكمته وتدبيره لهذا الكون.

إن القرآن الكريم يجعل من موضوع السنن حقيقة عقدية يخاطب بها الناس كافة، ليحيا من حيي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة، ففي سورة آل عمران التي وردت فيها الدعوة صريحة إلى تبصر سنن الله تعالى والاعتبار بعاقبة المكذبين، جاء الخطاب فيها عاما، فقال جل وعلا: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)﴾(آل عمران).

فقد خاطب الحق جل وعلا الناس جميعا موجها ومرشدا إلى موضوع السنن، وجعلها بيانا لهم بقوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾، وهو إرشاد عام إلى أن جريان الأمور على السنن المطردة حجة على جميع الناس، مؤمنهم وكافرهم، تقيِّهم وفاجرهم[1].

والحق أن المؤمنين الصادقين العالمين كانوا أكثر تبصرا بسنن الله تعالى؛ لأن الإيمان بتلك السنن فرع من إيمانهم بالله تعالى، فقد آمنوا بالله ربا وخالقا ومدبرا، وعلموا أن كل ما في الكون من خلق وأمر مرده إلى الله تعالى، وأنه تعالى أجرى شؤون خلقه وفق نواميس ثابتة ومطردة بمقتضى حكمته وإرادته.

وأما الأشقياء والمستكبرون عن عبادة ربهم، فقد تعاموا عن ذلك البيان، ولم يهتدوا بهداية الرحمن، فقطعوا كل صلة بين السنن وربانيتها، ونظروا إليها على أنها ظواهر وأحداث طبيعية، قائمة على العشوائية والمصادفات، وفي أحسن الأحوال قائمة على قوانين مادية تتحكم في الظواهر الطبيعية، وأعزوا بذلك خلق الله تعالى وأقداره في

---

[1] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 118/4.

الطبيعة الصماء مرة، وإلى الصدف العمياء أخرى، ولم يستطيعوا بما ران على قلوبهم أن ينفذوا إلى ما وراء الأحداث والظواهر من أقدار تصرفها وإرادة ربانية تسيرها.

إن خصيصة الربانية تعطي السنن بعدا غيبيا، وتجعل المؤمن يتجاوز حواجز الحس، ويرتفع عن مرتبة الحيوانية التي لا تدرك إلا المحسوس، فهو يدرك بهداية الوحي أن عالم السنن مرتبط أسد الارتباط بعالم الغيب، لا من حيث مصدرها الرباني، فذلك أمر بدهي، ولكن أيضا بسبب إسهام مخلوقات وعوالم أخرى غيبية أخبر عنها الوحي المعصوم، وبذلك تتسع في حس المؤمن دائرة الغيب لتشمل إضافة إلى الإيمان بالله تعالى، وهو قمة الإيمان بالغيب، الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر، وما يكون فيه من بعث وحساب وثواب وعقاب، وبالقدر الذي يظل غيبا حتى يقع، فهذه كلها من مقتضيات عقيدة المؤمن[1].

2 - الاطراد.

"اطرد الأمر تبع بعضه بعضا وجرى واطرد الحد تتابعت أفراده وجرت مجرى واحدا كجري الأنهار"[2].

وعليه، فالمقصود باطراد سنة الله تتابع حصولها، أو تكرار آثارها على الوتيرة نفسها كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها[3]، يقول الله جل ذكره: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (سورة فاطر: من الآية43).

وهكذا نجد أن اطراد سنة الله يعني أنها ليست عشوائية قائمة على أساس الصدفة.

ولهذا قص علينا القرآن الكريم قصص الغابرين وما حل بهم من جراء ما اقترفوه من مخالفات للأوامر الإلهية، لنأخذ الدروس والعبر، ونرجع إلى الصراط السوي، حتى لا يصيبنا ما أصابهم، ولولا اطراد سنة الله لما كانت هناك دعوة للسير في الأرض والوقوف على آثار السابقين وأخذ العبرة والدروس مما أصابهم. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(آل عمران:137)، ويقول جل وعلا: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾(الحشر: من الآية2).

يقول إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي –رحمه الله: "إنه لولا أن اطراد العادات[4] معلوم لما عرف الدين من أصله، فضلا عن تعرف فروعه؛ لأن الدين لا يعرف إلا عند الاعتراف بالنبوة، ولا سبيل إلى الاعتراف بها إلا بواسطة المعجزة، ولا معنى للمعجزة إلا أنها فعل خارق للعادة، ولا يحصل فعل خارق للعادة إلا بعد تقرير اطراد العادة في الحال والاستقبال كما اطردت في الماضي، ولا معنى للعادة إلا أن الفعل المفروض لو قدر وقوعه غير

---

[1] سنن الله في إحياء الأمم، حسين شرفه، ص101.

[2] كتاب الكليات، لأبي البقاء الكفوي، ص141.

والاطراد يضم مجموعة من المعاني "لأنه يضم أجزاء المدود ويجمعها، ويتبع المحدود بحيث يوجد حيث وجد ويستقيم بذلك ويستمر عليه".

المعين في تفسير كلام الأصوليين، عبد الله ربيع عبد الله محمد، ص52.

[3] أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، ص76.

[4] يقصد بالعادات: السنن.

مقارن للتحدي لم يقع إلا على الوجه المعلوم في أمثاله، فإذا وقع مقترنا بالدعوة خارقا للعادة، علم أنه لم يقع كذلك مخالفا لما اطرد إلا والداعي صادق"[1].

ويقول بديع الزمان النورسي: "إن آثار البشر وقوانينه تشيب وتهرم مثله، وتتغير وتتبدّل. إلا أن أحكام القرآن وقوانينه لها من الثبات والرسوخ، بحيث تظهر متانتها أكثر كلما مرت العصور"[2].

فهي سنن واقعة آتية من الأزل، فهي باقية وماضية إلى الأبد لا تهرم أبدا، ولا يصيبها الموت، كما تهرم القوانين المدنية وتموت.

ولذلك "فجميع السنن التي فطر الله عليها أمور الخلق قابلة للتكرار والإعادة –بإذن الله– كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها.. فالمطر يهطل بإذن الله كلما تلبدت الغيوم في السماء وتهيات الظروف الجوية المواتية، والحجر يسقط إلى الأرض كلما ألقينا به في الفضاء، واليد تحترق كلما لامست النار، والمرض يحصل كلما صادفت الجراثيم جسما قابلا للعدوى والمرض.. وهكذا"[3].

فسنة الله مطردة تشمل الماضي والحاضر والمستقبل، واطرادها لا يعني حتميتها. وهنا يمكن القول بأنه بالرُّغم من ثبات سنة الله في الكون واطرادها، فالمشيئة الإلهية طليقة لا يَرِدُ عليها قيد ما، مما يخطر على فكر البشر البعيد عن أصول التوحيد الإسلامي. وهو سبحانه وتعالى يبدع كل شيء ويخلقه بمجرد توجّه مشيئته إلى إبداعه وخلقه. فليس هناك قاعدة ملزمة ولا قالب مفروض مُلْزِم للمشيئة الإلهية في الفعل، فهو عز وجل يفعل ما يشاء كيف يشاء حين يشاء، لا راد لأمره، ولا معقّب لحكمه[4].

والحاصل أن جريان سنن الله وتحققها يكون بقضاء الله ﷻ وقدره وحكمته، يستوي في ذلك سنن الله الجارية[5] والخارقة[6]. وإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئا فإنه لا ينفذه بإبطال سننه المطردة وأقداره الماضية في خلقه، ولكن بالترجيح أو التوفيق بينها، كما قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾(سورة طه: من الآية40) وهذا ما يخالف مبدأ الحتمية وينقض مزاعم القائلين بها.

ونمثل لاطراد سنن الله بسنة الله في عقاب من تكبر على طاعته وطاعة رسله، بقول الحق جل وعلا:﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾(سورة المزمل: 15-19).

وهكذا فإن السنن الإلهية الاجتماعية ثابتة ومطردة لا تتحول ولا تتبدل، أما السنن الكونية فقد تنخرق أحيانا نصرة لبعض المؤمنين، أو نجاتهم، أو هلاك العصاة الخارجين عن طاعته، فالسنن المتعلقة بالأمور الطبيعية

(1) الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، 484/2.

(2) الكلمات، ص471.

(3) مهمة الدين الإسلامي في العالم، وجدي، ص299.

(4) السنن الإلهية، مجدي عاشور، ص105.

(5) معنى كونها سنن الله جارية أنها يمكن أن تتحقق –بقدر من الله عز وجل– كلما توفرت شروطها ومقوماتها، وتتم المواجهة بمقتضاها.

(6) السنن الخارقة: أي بالنسبة للبشر يعتبرونها خوارق، أما عند الله تعالى فليس عنده شيء اسمه خوارق، فكل شيء يتحرك بإرادته ومشيئته وحكمته العادلة وإن بدا لنا أمرا خارقا للعادة.

(الكونية) ينقضها الله إذا شاء، أما السنن الاجتماعية (الشرعية أو الدينية) "فهذه السنن كلها سنن تتعلق بدينه، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وليست هي السنن المتعلقة بالأمور الطبيعية كسنته في الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من العادات؛ فإن هذه السنة ينقضها إذا شاء بما شاءه من الحكم، كما حبس الشمس على يوشع، وكما شق القمر لمحمد ﷺ، وكما ملأ السماء بالشهب، وكما أحيا الموتى غير مرة، وكما جعل العصا حية، وكما أنبع الماء من الصخرة بعصا، وكما أنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ..."[1].

3 - **الشمول:** الشمول خصيصة أخرى من خصائص السنن، وهو معنى يُستشف من نصوص الشرع ويفهم في سياقها.

هذا، ومادة "شمل" في لسان العرب[2] تشير إلى معنى العموم والإحاطة، وتجعل الشمول والعموم لفظين مترادفين.

أما من حيث الاصطلاح فإن الشمول معناه: "التناول الْكُلِّي لجزئياته والاشتمال فِي تنَاول الْكل لأجزائه. وَمعنى التَّنَاوُل الشمولي أَن يتَعَلَّق الحكم بِكُل وَاحِد مجتمعا مَعَ غَيره، أَو مُنْفَردا عَنهُ"[3].

والمقصود بالشمول في السنن الإلهية أنها لا تعرف استثناء أو محاباة، ولا تستجيب للأماني والادعاءات، بل هي صارمة نافذة متى توفرت مقدماتها تحققت نتائجها حتما بإذن الله.

والشمول في السنن منبثق من ربانيتها ومنسجم مع عنصر العدل فيها ومكمل لعدم تبدلها وتحولها، مما يدل على أن هذه الخصائص متكاملة وتعمل مجتمعة في تحقيق سنن الله تعالى.

أما عن انبثاق خصيصة الشمول من ربانية السنن فيبدو بدهيا؛ لأن الله تعالى هو الذي سن هذه السنن وأجرى نظام الكون عليها.

فهو حين شرع السنن وأجرى عليها نظام الخلق لم يفعل ذلك استجابة لإرادة فرد أو جماعة أو أمة، إنما تم ذلك بمقتضى إرادته سبحانه وتعالى التي أساسها الحكمة والعدل.

ومن هنا فشمول السنن ناشئ عن ربانيتها، لذلك برئت من التحيز والهوى، ولا مجال فيها للجور أو المحاباة، فهي من شرع رب الناس للناس[4].

ومن ثم فإن حكمها يسري على الجميع بدون استثناء؛ لا تحابي أحدا، بغض النظر عن كونه مؤمنا أو كافرا، أبيض أو أسود، عربيا أو عجميا، يعيش في رقعة إسلامية أو غير إسلامية، غير مقتصرة على هذا أو ذاك، الكل سواسية أمام حكمها، وصدق الله تبارك وتعالى القائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾(سورة النساء:123)، والقائل أيضا: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾(سورة القمر:43)، فالقضية ليست انتماء إلى رقعة إسلامية، أو جنس عربي أو غير

---

[1] جامع الرسائل، ابن تيمية، 52/1.
[2] انظر: لسان العرب، لابن منظور، مادة: شمل، 367/11-368.
[3] انظر: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء الكفوي، ص540.
[4] سنن الله في إحياء الأمم، شرفه، ص167.

ذلك، وإنما القضية قضية عمل وجزاء، وفي هذا السياق يقول ابن تيمية –رحمه الله-: "الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"[1].

وعلى الرُّغم من ذلك فالغاية من ذكر أحوال الأمم الغابرة هي أن تترسخ السنة في نفوس المؤمنين، وأن يفهم الناس أن الآخر سيُفعل به ما فُعل في الأول حين يسير في طريقه. وكل تلك القصص والأخبار تتلوها تعقيبات تؤكد هذه السنة والقاعدة التي صارت علما[2].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: "كان المِلِّيون من جميع الأجيال يعتقدون أن أفعال الله – تعالى- في خلقه تشبه أفعال الحاكم المستبد في حكومته، المطلق في سلطته، فهو يحابي بعض الناس فيتجاوز لهم عما يعاقب لأجله غيرهم، ويثيبهم على العمل الذي لا يقبله من سواهم، لمجرد دخولهم في عنوان معين، وانتمائهم إلى نبي مرسل، وينتقم من بعض الناس لأنهم لم يطلق عليهم ذلك العنوان، أو لم يتفق لهم الانتماء إلى ذلك الإنسان.

هذا ما كانوا يظنون في دينهم ويسندونه إلى مشيئة الله المطلقة، من غير تفكير في حكمته البالغة، وتطبيقها على سننه العادلة، فإن نبههم منبه إلى ما يصيبهم بل ما أصاب أنبياءهم من البلاء، قالوا إنه –تعالى- يفعل ما يشاء، وذلك رفع درجات أو تكفير للسيئات وأشباه هذا الكلام الذي يشتبه عليهم حقه بباطله، ويلتبس عليهم حاليه بعاطله، وقد كان وما زال علة غرور أصحابه بدينهم، واحتقارهم لكل ما عليه غيرهم، فجاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله –تعالى- في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة، فمن سار على سنته في الحرب –مثلا- ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن تنكبها خسر وإن كان صديقا أو نبيا، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في وقعة أحد... ولكن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله –تعالى- في الأمم، وأحق الناس بالسير على طريقها بين الأمم ؛ لذلك لم يلبث أصحاب النبي ﷺ أن ثابوا يومئذ إلى رشدهم، وتراجعوا للدفاع عن نبيهم، وثبتوا حتى انجلى عنهم المشركون، ولم ينالوا منهم ما كانوا يقصدون.

وكأن بعض المسلمين لم يكونوا قد حفظوا ما ورد في السور المكية من ثبات سنن الله في خلقه وكونها لا تتبدل ولا تتحول، أو حفظوا ولم يفقهوه ولم يظهر لهم انطباقه على ما وقع لهم في أحد، لذلك صرح لهم في بدء الآيات التي تبين لهم سننه أن له سننا عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل. وأن ما وقع لهم يوم أحد مما يقص حكمته عليهم هو مطابق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل[3].

ومن هنا، فلولا شمول السنن الإلهية وعمومها واطرادها وثباتها لما ذكرت لنا قصص الأمم السابقة، إذ ما يجري عليها يجري على غيرها في باقي الأزمان والأمصار، فأي أمة تنكبتها –أي سنة الله- لقيت جزاءها عاجلا أو آجلا، وهذا ما سجله القرآن الكريم في غزوة أُحُد، لما أخطأ الرماة وخالفوا الأوامر النبوية لقوا جزاءهم؛ قال الحق جل ذكره: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران:165)، فلا محاباة ولا تمييز أمام سنة الله.

---

[1] مجموع الفتاوى، لابن تيمية، 63/28.

[2] اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، ص132.

[3] تفسير المنار، 116/4.

كما خصص القرآن الكريم جانبا كبيرا من سوره لعرض قصص الغابرين، لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم من تغير أحوالها إيجابا أو سلبا؛ حين اختارت لنفسها طريقا معينا، ولينبهنا كذلك على أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن والنواميس المطردة الثابتة العامة التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية.

قال الحق جل وعلا: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾(سورة هود:89). فسنن الله لا تحابي أحدا وقصص القرآن كثيرة: قصة قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى... لما خالفوا أنبياءهم حصدتهم سنة الله وكانت لهم بالمرصاد...

وبناء على ذلك؛ فإن النواميس التي يتحدث عنها القرآن الكريم تتميز بأنها نواميس مطلقة صالحة لكل زمان ومكان؛ متى توفرت مقوماتها وتحققت شروطها الموضوعية في الزمان والمكان، فهي عامة.

هذا، والآيات الدالة على شمول السنن الإلهية وعمومها كثيرة، أذكر منها قوله جل جلاله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(سورة البقرة:214). قال الشيخ أبو السعود في تفسيره: "﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خوطب به رسولُ الله ﷺ ومن معه من المؤمنين حثًّا لهم على الثبات على المصابرة على مخالفة الكفَرَة وتحمُّل المشاقِّ من جهتهم إثر بيانِ اختلافِ الأممِ على الأنبياء عليهم السلام ، وقد بُيّن فيه مآلُ اختلافِهم وما لَقِيَ الأنبياءُ ومَنْ معهم من قبلهم من مكابدة الشدائد ومقاساة الهموم وأن عاقبة أمرِهم النصرُ وأم منقطعة والهمزةُ فيها للإنكار والاستبعاد أي بل أحسبتم ﴿أَن تَدْخُلُواْ الجنة وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الذين خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين أي والحال أنه لم يأتِكم مثلُهم بعد ولم تبتلوا بما ابتُلوا به من الأحوال الهائلةِ التي هي مَثَلٌ في الفظاعة والشدّة وهو متوقَّعٌ ومنتظَرٌ ﴿مَّسَّتْهُمُ﴾ استئنافٌ وقعَ جواباً عما ينساقُ إليه الذهن كأنه قيل وكيف كان مثلهم فقيل: مسَّتْهم ﴿البأساء﴾ أي الشدَّةُ من الخوف والفاقةِ ﴿والضراء﴾ أي الآلامُ والأمراضُ ﴿وَزُلْزِلُواْ﴾ أي أزْعجوا إزعاجاً شديداً بما دَهَمهم من الأهوال والأفزاع"[1].

وقوله تقدست أسماؤه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾(محمد:10). قال الشيخ أبو السعود في تفسيره:" ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأرض﴾ أي أقعدُوا في أماكِنِهم فلم يسيرُوا فيها ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عاقبة الذين مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأممِ المكذبةِ فإنَّ آثارَ ديارِهم تنبئ عن أخبارِهم . وقولُه تعالى: ﴿دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأَ من الكلامِ كأنَّه قيلَ كيفَ كان عاقبتُهم فقيلَ استأصلَ الله تعالَى عليهم ما اختصَّ بهم من أنفسِهم وأهليهم وأموالِهم ، يقالُ دمَّره أهلكَه ودمَّر عليهِ أهلكَ عليهِ ما يختصُّ به . ﴿وللكافرين﴾ أي ولهؤلاءِ الكافرينَ السائرينَ بسيرتِهم ﴿أمثالها﴾ أمثالُ عواقبِهم أو عقوباتِهم لكنْ لا على أنَّ لهؤلاءِ أمثالَ ما لأولئكَ وأضعافَهُ، بلْ مثلَه ، وإنما جُمعَ باعتبارِ مماثلتِه لعواقبَ متعددةٍ حسبَ تعددِ الأممِ المعذبةِ"[2].

---

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، 215/1.
[2] نفسه، 94/8.

فليس المراد من السير في الأرض هنا خصوص السفر، بل مطلق تعرف أحوال الماضين بأي سبيل، وليس من شك أن من المفيد للعاقل أن يبحث عن أحوال الناس، ويطلع على الأسباب الموجبة لضعفهم، أو قوتهم، فيتعظ ويعتبر، ويسترشد إلى ما فيه خيره وصلاحه، ومن أجل هذا قال عز من قائل: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:138). هذا إشارة إلى ذكر السنن الحكيمة التي من سار عليها ظفر، ومن تنكبها خسر.. ولابد من البيان للناس كافة، ليكون حجة على من عصى، وهدى وموعظة لمن اتقى، فإنه السبيل الوحيد الذي يميز العاصي والمطيع.. ولولا البيان لا طاعة ولا عصيان [1].

أضف إلى كل ما تقدم شمولية السنن تعني كذلك أنها جامعة لا تقبل التجزئة، وشاملة لكل شؤون الحياة ولكل ميادين النشاط البشري، ولكل القضايا الكبرى في هذا الكون، لا تستثني مجالا من مجالات الحياة أو جانبا من جوانبها، وليست شمولية مقتصرة على زمن معين وعصر مخصوص، بل شمولية تستوعب الزمن كله، وتستوعب جوانب الحياة كلها، وتستوعب الإنسان كله في الماضي والحاضر والمستقبل.

إنها سنن الله التي جاءت بنواميس شاملة جامعة مانعة، وأخرى مفصلة تفصيلا جزئيا دقيقا؛ تشمل الإنس والجن والملائكة وكل المخلوقات من الدواب والهوام.

4 – النفاذ والصرامة وعدم المحاباة.

يترتب على ثبات السنن الإلهية واطرادها وشمولها واستمرارها أنها لا تجامل أحدا، ولا تميز بين فرد وفرد أو جماعة وأخرى لأي سبب من الأسباب، إنها تعبر عن العدل الإلهي المطلق.

فلا مجال فيها للأهواء، ولا تميل إلى طرف دون آخر، فالجميع سواسية في ميزانها، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (النساء: 123). وعليه؛ فإن "كون هذه السنن قوانين مطردة تحكم الحياة والأحياء يقضي بأنها تجري على الناس جميعا، المؤمن منهم والكافر، ترتبط فيها الأسباب بمسبباتها، وقد جعل الله لكل شيء سببا"[2].

يقول الدكتور عماد الدين خليل: "إن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن سوف يؤول إلى تمييع الحركة التاريخية، وعدم انضباطها جزائيا، وبالتالي يؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل.. ومن أجل أن نطمئن، يبين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها، وعدم تبدلها وتحولها، إنها موجودة أساسا في صميم التركيب الكوني، وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم"[3].

وهكذا فإن نفاذ السنن الإلهية راجع إلى جملة من الحقائق العقدية، أهمها أنها صادرة عن مشيئة الله تعالى وإرادته التي لا تقهر، كما أنها مظهر من مظاهر قدرته سبحانه التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، ثم هي قائمة على العدل المطلق الذي لا يَظلم فيه ربك أحدا.

---

(1) التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، 4/159-160.

(2) حتى يتحقق الشهود الحضاري، حسنة، ص74.

(3) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ح4019، وقال الشيخ الألباني حديث حسن.

ومن هنا فنفاذ سنن الله يبرز من خلال أصل عقدي، هو قدرة الله تعالى التي لا ترد أو تعارض، كما أنها حقيقة يصدقها الواقع ويشهد لها التاريخ.

وهنا من الأهمية بمكان القول أن من جوه نفاذ السنن الإلهية أخذه تعالى الظالمين وهم في أوج قوتهم وجبروتهم وبطشهم، مما يدل على أن سنن الله تعالى ثابتة وماضية إزاء الأمم التي تتنكب الطريق، بغض النظر عن قوة تلك الأمم وإنجازاتها المادية، فليس مما يعطل سنة الله في إهلاكها.

والآيات الدالة على إهلاك الأمم وفي في ذروتها المادية أوج قوتها وجبروتها كثيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (21) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (22)﴾(غافر)، وقوله عز من قائل: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (فاطر: 44).

ففي هذه الآيات الكريمة ومثيلاتها وصف لأحوال الأمم الغابرة، فقد أوتوا قوة في الأجساد، وسعة في الأموال، فتركوا آثارا في الأرض تشهد على قوتهم وجبروتهم، وقد اغتروا بتلك القوة وظنوا أنها مانعتهم من بطش الله تعالى وأخذه، ومضاء سنته في القوم الظالمين، ولكن تلك القوة لم تغن عنهم من الله شيئا، فقد أخذهم أخذ عزيز مقتدر، وجعلهم عبرة وذكرى لمن يأتي بعدهم.

وهكذا فسنن الله ماضية نافذة صارمة لا يحول دونها قوة أو جبروت.

ومن وجوه نفاذ سنن الله أيضا أنها لا تعذر جاهلا لجهله، ولا غافلا لغفلته، بل هي قدر محتوم يمضي إلى هدفه لا يأبه لجهل أو غفلة، ولعل أصدق مثال على هذه الحقيقة ما حكاه القرآن الكريم عن موقف المسلمين من هزيمة أحد، فقد ظنوا أنهم منتصرون بمجرد كونهم مؤمنين وأعداؤهم كفارا، ولم يلتفوا إلى سنن الله في النصر، وأهمها طاعة رسول الله ﷺ وعدم مخالفة أوامره. يقول الله تعالى مصورا ذلك: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: 165).

فقول المؤمنين ﴿أَنَّى هَذَا﴾ ينم عن غفلتهم عن سنته تعالى التي لا تعرف المحاباة، فجاءهم الجواب ينبههم على مخالفتهم لسنة الله ويحملهم مسؤولية ما حدث ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾، فقد انطبقت عليهم سنة الله حين عرّضوا أنفسهم لهم، ومن عرّض نفسه لسنة الله تعالى لابد أن تطبق عليه مسلما كان أو كافرا[1].

وقد دل التعقيب في ختام الآية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أن الله تعالى "لا يعجزه تنفيذ سننه بعقاب المسيء وإثابة المحسن وإقامة النظام العام في الكائنات، بربط الأسباب بالمسببات، فلا يشذ عن ذلك مؤمن ولا كافر ولا بر ولا فاجر"[2].

---

[1] ينظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، 514/1.

[2] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 185/4.

وقد ناسب المقام ذكر صفة القدرة، لبيان نفاذ سنن الله تعالى وعدم تخلفها، لأن من مقتضى قدرته تعالى أن تنفذ سنته، وأن يحكم ناموسه، وأن تمضي الأمور وفق حكمه وإرادته، وألا تتعطل سننه التي أقام عليها الكون والحياة والأحداث[1].

وخلاصة القول: إن نفاذ السنن الإلهية وصرامتها وعدم محاباتها لأحد خصيصة من خصائصها، دلت عليها معطيات كثيرة، أهمها:

أنها تمثل قدرة الله تعالى القاهرة الغلابة التي لا يحول دون تحققها قوة أو بطش أو جبروت، كما أنه لا يردها جهل أو غفلة.

أن نفاذها عام وصارم، لا يعرف المحاباة، ولا يفرق بين مؤمن وكافر، فمن تعرض لها انطبقت عليه، ومن صادمها حصدته كائنا من كان.

أنها تمثل كلمات الله سبحانه وتعالى التي لا مبدل لها، فهي تمضي إلى هدفها في أجلها المحدود، ولا تقبل شفاعة ولا رجاء، لأن السنن من كلمات الله الكونية التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر كما نطق بذلك الصادر المصدوق ﷺ[2].

5 -الحكمة والعدل.

أ)-**الحكمة**: إن الله تعالى هو "الحَكِيمُ في صنعه الذي لا يفعل شيئًا من الإضلال والهداية إلا لحكمة بالغة، فلا يفعل إلا ما تقتضيه السنن العامة في خلقه والنواميس التي وضعها لصلاح حال عباده وضلالهم"[3].

وفعله سبحانه ليس عبثًا، ما خلق السماوات والأرض باطلًا ولا لعبًا، ولا لهوًا، خلقها بالحكمة والعدل، وسننه تعالى تسير وفق الحكمة الإلهية..

فالله عز وجل إذا حقق سنة من سننه في خلقه، إنما يكون وراء وقوع هذه السنة حكمة بالغة له سبحانه وتعالى صادرة عن عالم بخفايا الأمور وغاياتها، يعلمها من يعلمها، ويجهلها من يجهلها.

ومع حكمته في هذه السنة فهي عادلة لا تمنح النعم والسعادة وسائر سنن الثواب إلا لمن هو أهل لها، ولا توقع الشقاء والتعاسة ومعيشة الضنك وسائر سنن العقاب إلا لمن يستحقها.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 56). قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾؛ أي: قادرًا غالبًا لا يمتنع عليه شيء مما يريده مما توعد به أو وعد، ﴿حَكِيمًا﴾؛ أي: لا يفعل إلا الصواب، فيعاقب من يعاقبه على وفق حكمته، ومن حكمته أن ربط الأسباب بالمسببات، فلا يستطيع أحد أن يغلبه على أمره، فيبطل اطرادها، فهو كما جعل الكفر والمعاصي سببًا للعذاب كما تقدم في الآية .. جعل الإيمان والعمل الصالح سببًا للنعيم"[4].

---

[1] في ظلال القرآن، سيد قطب، 514/1.

[2] ينظر: سنن الله في إحياء الأمم، ص178 وما بعدها.

[3] تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، 329/14-330.

[4] نفسه، 129/6-130.

ومن هنا ندرك سر إضافة السنن إليه سبحانه وتعالى بقوله ﴿سنة الله﴾ لتفيد هذا المعنى، وليطمئن المؤمنون إلى عدله وحكمته فيما يجري على عباده من سنن، وبإضافة السنن إليه سبحانه وتعالى ينتفي أن يكون ما يقع من تغيرات ونتائج في أحوال الأمم والأفراد إنما يقع بفعل الطبيعة كما يزعمون أو تقع وفق الحتميات الاقتصادية أو غيرها من الحتميات التي لا تقوم على أساس علمي ولا تتبع هديا ربانيا.

فكل ما يقع من تغيرات أو تطورات أو نتائج، إنما يقع بفعل الله تعالى وقدره على مقتضى حكمته وعدله، فلا خالق إلا الله، ومصرف لشؤون الكون ولا مقدر لسننه إلا هو سبحانه وتعالى[1].

وهذه السنن تشعر المؤمنين بالأمان، وأن ربهم سبحانه وتعالى حكيم، وأنه ليس في هذا الوجود أشياء تجري بلا حكمة، ليس في هذا الوجود صدفة وعبث، ليس في هذا الكون أقدار بلا فائدة ولا غاية، وإنما هي قواعد إلهية حكيمة، يطمئن فيها المؤمنون بوعد الله لنصر المؤمنين، وإهلاك الكافرين، وإذهاب الظالمين، فإذا أدرك المسلم كنه هذه السنن الإلهية فإنه يسير وفقها، ويعمل بمقتضاها، ويحسن التعامل معها، ويرسم حياته بناءً عليها، لا يريد أن يصادمها؛ لأن من يصادم سنن الله تعالى فعاقبته البوار والخذلان والخسران المبين، وكذلك فإن مشيئة الله تعالى في خلقه لا تتخلف، فهو جل وعلا له طرائقه الحكيمة، من سار على سنته ظفر، ومن تركها خسر، والمؤمنون أدرى الناس بمعرفتها، وأحق الناس بالاطلاع عليها.

ب)– العدل.

العدل معناه العَادِل؛ أي "الَّذِي يصدر مِنْهُ فعل العدْل المضاد للجور والظُّلم، وَلنْ يعرف العَادِل من لم يعرف عدله، وَلَا يعرف عدله من لم يعرف فعله؛ فَمن أَرَادَ أن يفهم هذا الوصف فَيَنْبَغِي أَن يُحِيط علما بِأَفْعَال الله تَعَالَى من ملكوت السَّمَوَات إِلَى مُنْتَهى الثرى"[2].

وقد اتسمت السنن الإلهية بالعدل لأنها من فعل الله تعالى وأمره ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾(الأعراف: 54)، وفعله تعالى وأمره هذه صفته دائما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾(النحل: 90). "و﴿العدل﴾ هو الإنصاف قولا وفعلا، والتسوية بين أصحاب الحقوق بإعطاء كل ذي حق حقه دون تحيز ولا هوى. ومن مشمولات العدل: العدل بين الإنسان وربه، بإيثار حق الله على حظ نفسه، والعدل بين الإنسان ونفسه، بمنعها عن كل ما فيه ضررها وهلاكها، وبمنحها كل ما فيه نفعها وصلاحها، والعدل بين الإنسان وأخيه من بقية الناس، بإنصافهم من نفسه، وعدم الإساءة إليهم بقول أو فعل، لا في السر ولا في العلن. و﴿الإحسان﴾ في هذا المقام، هو التفضل والإنعام، وحسن المعاملة بين الأنام"[3].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: 49): "من خلقه، بل يعفو ويصفح، ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء بحكمته وعدله، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع، وتعذيب العاصي، بمقدار جرمه من غير زيادة،

---

[1] ينظر: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الخطيب، 1/55-56.

[2] المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، ص98.

[3] التيسير في أحاديث التفسير، الناصري، 3/352-353.

وإنه قد يغفر له ما سوى الكفر، ومن ثم لا يعذب أحدا بما لم يعمله ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه، ولا يزيد في عقابه الملائم لعمله الذي نهى عنه ولم يرتضه"[1].

وقال تقدست كلماته: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36)﴾(القلم). "أي أفنحيف في الحكم ونسوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء، كلا ورب الأرض والسماء"[2].. فسننه تعالى عادلة ولا تسوي بين الكافرين والمؤمنين.

ويقول عز من قائل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: 115). قال الإمام أبو الخطاب قتادة –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآية: "صدقا فيما قال، وعدلا فيما حكم"[3].

وقال الحافظ ابن كثير –رحمه الله: "فكل ما أخبر به فحق، لا مرية فيه ولا شك، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهى عنه فباطل، فإنه لا ينهى إلا عن مَفْسَدة"[4].

وقال الشيخ محمد الأمين الهرري العلوي: "وقوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ تمييز لـ ﴿كَلِمَةُ﴾؛ أي: تمت كلمات ربك وأقضيته من جهة الصدق فيما وعد وأوعد، ومن جهة العدل فيما أمر ونهى، أو المعنى: تمت كلمات ربك وقرآنه من جهة الصدق فيما أخبر عن القرون الماضية والأمم الخالية، وعما هو كائن إلى قيام الساعة، ومن جهة العدل في أحكامه من الأمر والنهي والحلال والحرام، وسائر الأحكام"[5].

فالله تعالى عدل في تشريعه وعدل في أمره التكويني وفي أفعاله، أي عدل في خلقه وعدل في أمره وعدل في فعله، خلق وأمر وفعل فعدل.

"كما جعل سبحانه سنن الخليقة قائمة على أساس العدل، فمن نظر في هذه السنن ونظمها الدقيقة تجلى له عدل الله فيها على أتم ما يكون وأوضحه"[6].

يقول الدكتور عمر سليمان الأشقر –رحمه الله–: "إن البشرية ترنو دائما إلى إيجاد قوانين تتصف بالعدل وتنفي الظلم والجور، وكم يكون مصاب البشر أليما عندما يجدون القوانين التي يرجونها لإقرار العدل والإنصاف تقنن الظلم بحيث يكون هو النظام الذي يحكم في رقاب العباد. إننا لا نريد بالعدل تطبيق القاعدة القانونية؛ فجور القاضي وظلم الحاكم في الحكم بخلاف القانون ليس هو المراد هنا، بل المراد هو اتصاف القانون بالعدل"[7].

أما سنن الله فليست من وضع البشر، بل هي سنن بينها الله في الوحيين (الكتاب والسنة)، والله يتصف بالعدل التام، وكذلك سننه مصطبغة بالعدل اصطباغا تاما، فلا تميل إلى جانب ضد جانب، بل هي عامة وشاملة ومطردة ولا تحابي أحدا حاكما كان أم محكوما مؤمنا أم كافرا، رجلا أم امرأة. الكل سواسية في ميزانها ومنظارها

---

[1] تفسير المراغي، 15/158-159.
[2] المرجع نفسه، 29/41.
[3] تفسير ابن كثير، 3/322. تفسير البغوي، 3/181.
[4] تفسير ابن كثير، 3/322.
[5] تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، 9/20.
[6] تفسير المراغي، 3/118.
[7] المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي، عمر الأشقر، ص84.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(المائدة: من الآية 50)؛ فسنن الله عدل كله وإنصاف للجميع، تضع كل شيء في موضعه.

أمثلة لعدالة سنن الله

بكون الجزاء من جنس العمل

العمل	الجزاء
إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ←	يُؤْتِكُمْ خَيْرًا
فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ←	فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا ←	يَرَهُ
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا ←	يَرَهُ
مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا ←	يُجْزَ بِهِ
اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ←	وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ
قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ←	اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

6 - التسخير[1].

تتردد خصيصة التسخير في القرآن الكريم مرات عديدة، وتشغل مساحات واسعة منه، لكونها أسلوبًا من أساليب القرآن الكريم في الدلالة على السنن الإلهية -خاصة الكونية منها-، وبيان التصور الإسلامي لمهمة الإنسان في هذا الوجود، ألا وهي: تحقيق العملية الانجازية الاستخلافية الكبرى والشهود الحضاري وبناء العمران البشري. ولذلك وجه القرآن الكريم الإنسان إلى البحث عن قوانينه الكلية والكشف عن أسراره الكونية التي بثها في هذا الوجود من أجل معرفتها ثم استثمارها وتسخيرها، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ(33)﴾ (إبراهيم). قال العلامة محمد أبو زهرة-رحمه الله-: "ومعنى سخرها مكّن الإنسان من صناعتها واستخدامها، وجعلها تعلو في البحر سائرة من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، حاملة خيرات وفيرة من أرض إلى أرض أخرى، هذه الخيرات كثيرة، وبذلك تكون الخيرات موزعة في الأرض بالقسطاس لولا ظلم الإنسان.

---

[1] التسخير: التذليل والتسهيل.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ وهي المجاري العذبة كنهر النيل ودجلة والفرات وسيحون وجيحون، ومعنى سخرها سهلها وتكون في البلاد التي تقل أمطارها، ولا يكفي ما تنزل السماء من ماء لسقيها وزرعها، وسمي النهر نهرا لأنه ينهرها ويشقها ويجري فيها، والأنهار الكبار تمخر فيها السفن كالبحار، واللَّه هو الرزاق.

بعد أن ذكر سبحانه ما سخر في الأرض من اقترانها بالسماء أخذ يبين للإنسان من أجرام السماء فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾؛ الدؤوب معناه: السير والمرور في استمرار ودأب من غير لغوب، وتلك سنة اللَّه تعالى في أجرام السماء، فهي تسير في دأب يعلم اللَّه تعالى سيرها، وناموسها وسننها من غير إبطاء، والشمس والقمر يسيران ويتحركان في دأب مستمر... وهي مسخرة يستفيد الإنسان من حركاتها، فالشمس ذات الضياء والأشعة التي تمد الزرع والشجر والثمار بالنمو، والإنسان بالدفء والحرارة والأشعة، وكل ما فيه حياة الإنسان، والقمر يمده بما تنتظم به الحياة في الإنسان والحيوان، وحسبك أن تعلم أن طَمْث المرأة وحملها وجهازها مرتبط بمنازل القمر، وأن تعلم أن المد والجزر مرتبطان أيضا بالقمر، وإن ارتباط الشمس بالأرض كان منهما الليل والنهار، فالأرض في دورانها يحجب عنها ضوء الشمس فيكون الليل وينبسط عليها ضوء الشمس فيكون النهار، وفي الليل الهدأة والسكون والثبات والراحة، والاستجمام، وفي النهار تكون الحركة والسعي للرزق"[1].

وقال جل وعلا: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: 15)." أي إن ربكم هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لكم، فجعلها قارّة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأوجد فيها من العيون، لسقيكم وسقى أنعامكم وزروعكم وثماركم، وسلك فيها السبل، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أرجائها، لأنواع المكاسب والتجارات، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق- والسعي في الأرزاق لا ينافى التوكل على الله"[2].

7 -الواقعية.

تبدو خصيصة واقعية السنن الإلهية أمرا بدهيا لكل ذي بصيرة استطاع أن يُدرك أن لله سبحانه سننا في الكون والحياة استوعبت الأزمنة ماضيا وحاضرا ومستقبلا؛ مما يجعلها تتعامل مع واقع الناس المشهود في كل زمان ومكان، ومع حقائق موضوعية ذات وجود حقيقي، لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع مثاليات خيالية لا مقابل لها في حياة الناس ولا وجود.

وبمعنى آخر؛ فكون سنن الله واقعية؛ ينفي عنها الخيال، ويجعلها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالواقع وما يدور فيه، فهي لا تنفصل عنه تماما، وهكذا تأتي سنن الله الإلهية لا لتسبح في بحار الخيال، ولا لتحلّق في أجواء المثالية المجنَّحة، فتفرض إنسانا لا وجود له في الواقع، كما صنع الفارابي في مدينته الفاضلة وأفلاطون في جمهوريته الخيالية، وكما تخيَّلت الشيوعية المادية الغافلة عن الله والدار الآخرة في أذهانها عن المجتمع الذي تنعدم فيه الفوارق والطبقية وتزول الملكية، ولا يحتاج إلى دولة ولا قضاء ولا شُرطة ولا سجون!.

---

[1] زهرة التفاسير، 4033-4032/8.

[2] تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، 15/39.

وهنا يتضح لنا أن سنن الله "تفسر أحداث الواقع أفضل تفسير وأبينه. نزل القرآن منجما حسب ما اقتضته الضرورة الظرفية، (...) وجاء يسنن قوانين خضعت لها كل ظروف الزمان والمكان.

وإذا ما أخذنا سنة من السنن وعرضناها على الأحداث المعاصرة مثلا تبين بما لا مجال للشك فيه بأن الغرب بفلسفاته الاجتماعية والعلوم الإنسانية ما استطاع فك لغز ترابط الأحداث، وعوامل الصراع السياسي، وذلك لإعراضهم عن سنن الله تعالى"[1].

ثم إن واقعيتها كذلك تتجلى في تسخير الله تعالى الناس لفعلها، فالمستكبر الظالم مثلًا عندما يعاقب، يعاقب على أيدي بشر آخرين، ممن هم أشد منه قوة بطشا، فينتقم الله عز وجل من الظالم بظالم مثله، وكذلك الكفار المستكبرين المعاندين، يعاقبهم الله تعالى بتسليط المؤمنين الصادقين عليهم، قال الله عز اسمه: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾(الأنفال: 18)، وقال جل ثناؤه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ. وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 14-15].

ولهذا فلم تنس السنن الإلهية في توجيهاتها وقوانينها واقع الكون والحياة، وواقع الناس بكل ظروفه وملابساته؛ لأن تلك السنن مصدرها صاحب الخلق والأمر الذي يعلم كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، لذلك جاءت تلك السنن منضبطة بهذا الضابط تدل الإنسان على ما يصلحه ويرقى به زمرة المرضيين، وتحذره من الفساد وما يهبط به إلى الحضيض.

تلك إذن، هي واقعية السنن لا تكلف الناس شططا، ولا ترهقهم عسرا، ولا تجعل عليهم حرجا، بل ترشدهم إلى سواء السبيل، تعالجهم إذا مرضوا وتساعدهم على الشفاء لمن أراد الشفاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾(الحج: من الآية 14).

8 - التوازن والتناسق.

يقول الحق جل ثناؤه: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾(الملك: من الآية 3)؛ نقصد بالتوازن ذلك التناسق الفريد في الآفاق؛ في السموات والأرض، في كل المخلوقات. ذلك بأن هذا الكون ومكوناته تعمل بانتظام وتعاون في خدمة غاية مشتركة. فالكواكب والأفلاك تسير في مسارها المحدد لها دون أدنى خلل أو اضطراب، فهي تتحرك في مداراتها منذ خلقها الله وهي كذلك لا تتصادم ولا تخرج عن مسارها وخطها المرسوم.

فالكون كله بما فيه من كواكب ونجوم وأفلاك وذرات ومجرات يسير ضمن سنن الله التي أودعها الله فيه، فهو لا يملك أن يتقدم عليها أو يتأخر ولا يملك أن يعدل فيها أو يغير، أو يبدل ويحول، وإنما هو يسير وفق الناموس الإلهي الذي ارتضاه الله ﷻ له، يسير على مقتضى إرادته ومشيئته ﷻ؛ فهو مستسلم لأمر ربه خاضع له لا إرادة له ولا اختيار له[2] ولا اختيار فيما قدره الله للكون من الحركة والسكون.

---

[1] منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية، محمد جابري، ص85.

[2] **هذا فيما يتعلق بالسنن الكونية. أما السنن الاجتماعية، فقد منحت الإنسان الحرية الكاملة في أن يختار لنفسه ما يشاء، بينت له طريق الهدى وبينت له كذلك طريق الضلال وتركت له حرية الاختيار لكنه في الأخير يتحمل نتائج ما يختار.**

فلا غَرو أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلق الله، وفي أمر الله جميعا، فهو صاحب الخلق والأمر. فظاهرة التوازن، تبدو فيما أمر الله به، وشرعه من الهدى ودين الحق، أي: في نظام الإسلام ومنهجه للحياة، كما تبدو في هذا الكون الذي أبدعته يد الله فأتقنت فيه كل شيء.

ننظر في هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهار، والظلام والنور، والحرارة والبرودة، والماء واليابس، والغازات المختلفة، كلها بقدر وميزان وحساب، لا يطغى شيء منها على مقابله، ولا يخرج عن حده المقدر له.

وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون الفسيح، إن كلاً منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه، دون أن يصدم غيره، أو يخرج عن دائرته [1]. ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس: 40).

والقرآن الكريم يتحدث عن سنن الله العامة في الكون على أنها دعامة النظام الكوني المتماسك بوشائج التوازن الإلهي الذي يحكم به هذا النظام، فهذا الترابط المحكم بين عوالم الكائنات علويها وسفليها، وهذا التنسيق بين آحاديها ومجموعاتها، وهذه الأوضاع المنسجمة التي تتراءى في وضع كل كائن في مكانه من التركيب الكوني، وهذا الاتساق في تقدير صلة كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر –هو الإطار الذي تجمعت فيه الخطوط التي تصور سنن الله التي يتحقق بها التوازن بين جميع المخلوقات.

والتوازن بين عناصر الكون ووشائجه هو سنة الله التي دبر بها الكون، وعليها أدار فلك نظامه الإلهي البديع، وهذا التوازن هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وهو الحق الذي خلقت به الحياة.

وبهذا يرسم القرآن العظيم صورة للنظام الكوني في نماذج من المخلوقات، يستبين منها أن الكون كله خاضع في نظام سيره وتركيب عناصره لسنن محكمة وحاكمة، مترابطا بوشائجها في وحدة قائمة على اتساق في وضع وتركيب كل كائن بما يهيئ له القيام بأداء ما خُلق له من المنافع والمصالح، ما دام في موضعه من نظام الكون العام. وهذا التماسك والاتساق بين ذرات الكون هو ما نعنيه بالتوازن المحكوم بسنن الله في هذا الكون العظيم [2].

هذا جانب، والجانب الآخر في التوازن هو التوازن بين المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية والاجتماعية.. فالمشيئة الإلهية طليقة لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشري جملة، وهي تبدع كل شيء بمجرد توجهها إلى إبداعه. وليست هنالك قاعدة ملزمة، ولا قالب مفروض تلتزمه المشيئة الإلهية، حين تريد أن تفعل ما تريد: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(النحل: 40).

وفي الوقت ذاته شاءت الإرادة الإلهية المدبرة أن تتبدى للناس –عادة– في صورة نواميس مطردة، وسنن جارية، يملكون أن يرقبوها، ويدركوها، ويكيفوا حياتهم وفقها، ويتعاملوا مع الكون على أساسها.. على أن يبقى في تصورهم ومشاعرهم أن مشيئة –مع هذا– طليقة، تبدع ما تشاء، وأن الله يفعل ما يريد، ولو لم يكن جاريا على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه، من السنن المقررة والنواميس المطردة. فسنة كذلك –وراء السنن كلها– أن هذه المشيئة مطلقة، مهما تجلت في نواميس مطردة وسنن جارية– ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر

---

[1] الخصائص العامة للإسلام، القرضاوي، ص128.

[2] السنن الإلهية، مجدي عاشور، ص8.

إلى تدبر سننه في الكون، والتعامل معها، والنظر في مآلاتها- بقدر ما يملك الإدراك البشري- والانتفاع بهذا النظر في الحياة الواقعية [1].

9 - الوسطية.

إن الوسطية في كل شيء من أهم ما تميز به الإسلام عن غيره من الشرائع السابقة والقوانين الوضعية، ويقصد بها الاستقامة وعدم الزيغان، كما يقصد بها التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، أو التوسط بينهما؛ بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ويحيف عليه، ولا يأخذ أحدهما الحق أكثر من الآخر ولا ينفرد بالتأثير ويطرد الطرف المقابل.

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾(الرحمن: 7-9)، نلمح إشارة قوية إلى الوسطية، فلا وكس ولا شطط، ولا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، في السنن الإلهية.

لقد صان الله ناموسه الكوني من الاندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك.. هذه الآفات التي لم يسلم منها أي تصور آخر. سواء التصورات الفلسفية، أو التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية، بما أضافته إليها، أو نقصته منها، أوَّلته تأويلا خاطئا، وأضافت هذا التأويل الخاطئ صلب العقيدة [2].

فالوسطية من مميزات هذه الأمة؛ وتتجلى هذه الوسطية في كل شيء؛ فمثلا ذم الله البخل لكنه ذم كذلك الإسراف، وجعل الإنفاق في سبيل الله هو المطلوب شرعا. قال الحق جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان: 67).

وكل نهج خالف خصيصة الوسطية برئ منه دين الله، ولئن أشرك كفار قريش مع الله وجعلوا له أندادا وأنكروا الإله الواحد، فقد غالت أيضا اليهود فقالت عزير ابن الله، وغالت النصارى فقالوا الله ثالث ثلاثة وقالوا المسيح ابن الله -تعالى الله وتقدس عما يقول المفترون المضلون علوا كبيرا.

وجاءت شريعة الإسلام بالحنفية السمحة، والوسطية والاعتدال، وبالقول الفصل الذي يعلو ولا يعلى عليه.

كيف لا تتسم السنن الإلهية بخصيصة الوسطية، وهي مستمدة من كلام الله تعالى، على عكس ما نراه في أي نظام يصنعه البشر الذي لا يخلو من التفريط أو الإفراط؛ ذلك بأن من المعضلات التي لم تنجح القوانين الوضعية في حلها؛ التطرف في التشريع، فبعض القوانين تجنح إلى أقصى اليسار، وبعض آخر يجنح إلى أقصى اليمين. وقلما يوفق واضعوا القوانين البشرية إلى التوسط والاعتدال في قوانينهم، ذلك أن الوسطية ليست بالأمر الميسور الهين.

لكن السنن الإلهية الربانية المصدر سلكت طريقا وسطا من غير تفريط ولا إفراط؛ فلا هي تضيق الخناق على الناس حتى تملها نفوسهم وتنفر منها قلوبهم. ولا هي أرخت لهم العنان في السهولة حتى تغرق النفوس في أوحال شهواتها وبراثين ملذاتها، وتبلغ منتهى هواها ومآربها.

---

[1] خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، ص124.

[2] المرجع نفسه، ص119.

هكذا تميزت سنن الله بالوسطية؛ بالاعتدال والتوسط دون إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، وصدق الله جل وعلا القائل في كتابه الحكيم:﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة: من الآية143).

10 - الأجل[1].

قال الحق عز سلطانه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾(الرعد: من الآية38)؛ أي: لكل كتاب أجل قُدِّم الخبر هنا، ولو أخر لتوهم السامع أنه صفة، أقول: هذا ما ذهب إليه الضحاك والفراء حيث قالا: "فيه تقديم وتأخير والمعنى: لكل كتاب أجل، وقد تعقب أبو حيان هذا القول قائلاً: "ولا يجوز ادعاء القلب إلا في ضرورة الشعر، وأما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب، بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه، إذ ثم أشياء كتبها الله– تعالى– أزلية كالجنة ونعيم أهلها، لا أجل لها"[2].

ولهذا فإن الله تبارك وتعالى قيد كل شيء في هذا الوجود بقدر معلوم إلى أجل معلوم، فيكون معنى الآية: أن لكل أمر قضاه الله كتاباً وأجلاً قد كتبه الله عنده، لا يتقدم ولا يتأخر.

والأجل "يختلف باختلاف الأشياء، والسبب الذي أجلت له. لكن لا ينفك عن الزمن والأجل، ومن هنا كان عامل الزمن ضابطا من ضوابط السنن الإلهية" [3].

وعليه؛ فنلمح مما سبق أن أجل كل شيء يختلف عن الآخر؛ فمنه ما يعد بالشهور نحو قوله جل وعلا: ﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾(الحج: من الآية 5)، ومنه ما يقاس بالعمر كما جاء في قوله تعالى وتقدس: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾(آل عمران: من الآية 145)، وقوله عز من قائل: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(المنافقون: 11)، وقوله جل ذكره:﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾(الحجر: 5)، ومنها ما يدوم بدوام الدنيا كقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(لقمان: 29).

ولولا اتسام سنن الله بهذه الخصيصة للحق بالكافرين العذاب في أول وهلة، قال الحق عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(العنكبوت: من الآية 53)، وقال الحق جل في علاه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾(فاطر: 45).

هكذا ترتبط سنن الله بالأجل؛ فلكل شيء أجل، فإذ جاء أجله فلا يتقدم ولا يتأخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(نوح: من الآية 4).

---

[1] الأجل: المدة المضروبة للشيء. مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة: أجل، حرف الهمزة، ص65.

[2] البحر المحيط في التفسير، 397/6.

[3] التجديد في دراسة الحديث النبوي الشريف على نور السنن الإلهية، ص122.

خصائص السنن:

الربانية: أي من عند الله الذي له الخلق والأمر، فهي تجسيد للإرادة الإلهية في الكون والحياة. كما أن ربانيتها تعني صلاحيتها لكل زمان ومكان.

الاطراد: أي ذات طابع موضوعي، فهي تلغي التصورات العشوائية، والعبثية والصدفة.

الشمولية: أي تسري على الجميع دون استثناء، كما أنها نافذة وصارمة ولا تحابي أحدا.

الحكمة والعدل: فكل السنن تسير وفق حكمة إلهية، وتنهج منهاج العدل ولا تحيد عنه.

التسخير والعمل: السنن الإلهية بإمكان البشر أن يقوم بتسخيرها والعمل وفقها، فهي ميسرة للجميع.

الواقعية: السنن الإلهية ليست من ضرب الخيال، وإنما واقعية حيث تم تنزيلها في واقع النبوة والخلافة الراشدة والعصور اللاحقة بها.

التوازن والتناسق والوسطية: إذ إن السنن الإلهية تسير على صراط مستقيم ولا تميل عنه لأي كان.. كما أنها تعمل ضمن منظومة كلية متوازنة متناسقة ترابطة.

الأجل: إن للسنن آجال كآجال الناس، ذلك بأنها غاية مربوطة بهدف؛ فلكل شيء أجل، فإذ جاء أجله فلا يتقدم ولا يتأخر.

المحور الخامس:

العناية بالسنن الإلهية: الجذور والتجليات

نفتح هذا المحور بطرح هذا الإشكال الرئيس: إلى أي حد كانت صلة الأمة الإسلامية بسنن الله الاجتماعية والكونية ونواميس الحضارة والعمران وطبائع الملل والأقوام ودراستها والعناية بها ومعالجة أدوائها ومشكلاتها من خلالها؟ هذا الإشكال نجيب عنه من خلال النقاط الآتية:

أولا: عناية الوحي القرآني بالسنن الإلهية:

لقد أولى القرآن الكريم عناية تامة للسنن الإلهية؛ حيث تفوق آيات السنن آيات الأحكام بأضعاف؛ لكون السنن الإلهية هي الفقه الأكبر (فقه الحياة).

ولذلك أكد القرآن الكريم أن كل شيء يحدث بسبب، ويخضع لنظام، سواء كان في عالم الأشياء (سنن الآفاق) أو عالم الأحياء (سنن الأنفس).

والقرآن الكريم مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب والعقاب على الأسباب بطرق متنوعة، وليس في الكون مكان للصدفة، وإنما هناك أسباب ومسببَات ونتائجُ تسبقها مقدمات..

وعليه؛ فالمصدر الأول والأساس للسنن الإلهية هو القرآن الكريم؛ فالله تعالى أعطى كل شيء خَلقه ثم هدى؛ فالهداية للأشياء أنها تسير وفقا لما أعطاها الله؛ وكلٌّ ميسر لما خلق له.

والقرآن الكريم لم يتكفل بالهداية إلى هذه السنن التي تمثل سر الحياة وامتدادها وديمومتها ووضع العقل على الجادة الصحيحة لمسيره، وإنما أكد إمكانية تدافعها؛ فهي ليست قوالب صلبة قسرية يُصبّ فيها الإنسان فتفقده حرية اختياره وكرامته وتميزه عن سائر المخلوقات، وإنما هي دينامية فاعلة متفاعلة، تتولد عن تدافعها حركة الحياة وتميز الأشياء، وتمنح العقل القدرة على المغالبة وتوليد الحلول ودرء المشكلات.

ولذلك فإن الإقبال على كتاب الله تعالى الذي يشكل مصدر المعرفة لهذه السنن، ويضعنا على الجادة، ومعاودة تلاوته وتدبر آياته والنظر والتأمل في هذا الخطاب الخالد الذي «لا يَخْلَق عن كثرة الرد» هو كفيل بالدفع لكشف أسرار الكون ومغاليقه أمام بصر الإنسان، وفتح بصيرته، وتمكينه من مفاتيح الكون والحياة والإنسان.

لكن الكثير من الدراسات القرآنية ركزت على جانب ضيق من علوم القرآن وتفسيره، وألفت فيه مجلدات طوال، وشروحات كثيرة، وإن كانت له أهميته، لكنها أغفلت جانبا مهما -(والذي يمثل أزيد من 90 % من آيات القرآن الكريم)- من آيات تحث العقل البشري على النظر والتدبر والقراءة المقاصدية الحضارية الواعية للكون والسير في الأرض وأخذ العبرة من الأمم الغابرة واكتشاف سنن الاجتماع والعمران الإنساني وغير ذلك.

ثانيا: عناية السنة النبوية بالسنن الإلهية:

اعتنت السنة النبوية (حديثا وسيرة) بإبراز السنن الإلهية وتوظيفها إلى أقصى درجات التوظيف، والمتأمل في السنة النبوية يجد عنايتها الخاصة بالسنن الإلهية.

ذلك بأن النبي ﷺ القدوة المبلِّغ عن ربه ما نزل إليه، تعامل مع معرفة الوحي التي أكدت حاكمية السنن لواقع الناس وحياتهم تعاملا عمليا، وقدم الأنموذج التطبيقي المثالي والتربوي لتسخير السنن وحسن التعامل معها، وكان محل الاقتداء والتأسي لمسيرة الحياة بكل تفاصيلها وجزئياتها وما يمكن أن يكون من العسر واليسر، والشدة والرخاء، والهزيمة والنصر، والضعف والقوة، والخطأ والصواب.

لقد كان ﷺ دليلا هاديا للناس للتعامل مع سنن الله تعالى وأقداره في شؤون الكون والإنسان، في كل الأحوال، مؤكدا في كل المناسبات أن هذه السنن الإلهية إنما تتحقق من خلال عزمات البشر، بعيدا عن الأوهام والأساطير والخوارق، ذلك بأن حسن تسخير هذه السنن ومغالبة قدر بقدر هي قضية الإنسان في الأرض، وأن الإخفاق في تسخيرها أو الغفلة عنها والانسحاب من التعامل معها مؤذن بالوقوع في الشدة والأزمة والتخلف، نتيجة الارتطام بها المؤدي إلى ضياع الأجر والعمر.

وهكذا كان سيدنا رسول الله ﷺ أسوة حسنة في فقه السنن الإلهية، وكانت كل تصرفاته امتثالاً لهذه السنن الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم، وبيانا عمليا لها، وتجسيدا حيا لها في الواقع والحياة...

كما كان ﷺ يرشد أصحابه ﷺ إلى سنن الله في الذين سبقوهم بالإيمان من أتباع الأنبياء والمرسلين قبله، ليحذوا حذوهم ويقتفوا آثارهم، ويحذرهم من السير على سنن المكذبين والظالمين والمشركين ليبتعدوا عنها ويجتنبوها، ويبين لهم أسباب مرض الأمم السابقة وهلاكها وحلول عقاب الله فيها، ويرشدهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة إذا ساروا على منهاج السنن الإلهية.

والأمثلة على ما سبق كثيرة جدا نذكر منها ما يأتي:

عن النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»[1].

إنه تصوير نبوي محكم للمجتمع الذي يتعاون أهله على البر والتقوى، والذي يتعاون على الإثم والعدوان، تصوير دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفو فإن المجتمع يحكمه قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي حديث آخر يجيب النبي ﷺ سائله الذي سأله أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ يجيبه بطريقة عملية مركزة أنه لا تعارض بين السنن الإلهية والأخذ بالأسباب، بل إن الأخذ بالأسباب من سنن الله تعالى: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[2].

ومن هذه الأحاديث السننية كذلك ما أخرجه الشيخان في صحيحهما من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه سمع النبي ﷺ : «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْض فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»[3]. وقال ﷺ أيضا: « لاَ يُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ »[1].

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، ح2361.
[2] سنن الترمذي، ح2517.
[3] صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ح5397. صحيح مسلم، كتاب السلام، بَابُ الطَّاعُونِ وَالطِّيَرَةِ وَالْكَهَانَةِ وَنَحْوِهَا، ح2219.

يَحكِي الشَّرِيدُ بنُ سُوَيْدٍ الثَّقَفِيُّ أنَّه «كان في وَفْدِ ثَقِيفٍ» وهي قَبِيلَةٌ مشهورةٌ «رَجُلٌ مَجذُوم»، أي: مُصابٌ بِمَرَضِ الجُذَامِ، وهو مَرَضٌ مُعْدٍ، وأراد هذا المجذومُ أن يأتِيَ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لِيُبايِعَه على الإسلام والجِهاد، «فأرسَلَ إليه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّا قد بَايَعْناك»[2]، أي: بالقولِ من غيرِ أخْذِ اليَدِ في العَهْدِ، «فارْجِعْ».

قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس مِن رَجُلٍ يَقعَ الطاعونُ **فيَمكُثُ في بَيتِه صابِرًا مُحتَسِبًا** يَعلَمُ أنَّه لا يُصيبُه إلَّا ما كَتَبَ اللهُ له إلَّا كان له مِثلُ أجرِ الشَّهيدِ»[3]. وفي رواية: (**فيَمكُثُ في بَلَدِه صابرًا**)[4].

قال الإمام ابن حجر في الفتح: "اقتضى منطوقه أن من اتصف بالصفات المذكورة يحصل له أجر الشهيد وإن لم يمت"اهـ. وبمعنى آخر فمن لزم بيته وقت نزول الوباء يحصل له أجر الشهيد وإن لم يمت.

فكل هذه الأحاديث تبين لنا الفقه السنني النبوي بسنة الله في الأخذ بالأسباب، ومواجهة الأقدار الإلهية بأقدار إلهية أخرى (الأسباب)، وهذه الأحاديث الشريفة تنطبق على واقعنا هذا، في ظل انتشار "وباء كورونا" في سائر بقاع العالم.

وقد بيَّن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث، مبادئ الحجر الصحي بأوضح بيان، فمنع الناس من الدخول إلى البلدة المصابة بالطاعون، ومنع كذلك أهل تلك البلدة من الخروج منها، كما دعا إلى عدم الخروج من البيوت حتى لا يتفشى الوباء فتنتقل العدوى بين الناس.

ولهذا قال حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله في إحيائه: "(من) اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوها مغرورا"اهـ.

وقال ابن الخطيب: "إنه غير خفي على من نظر في هذا الأمر أن من يخالط المصاب بهذا المرض يهلك ويسلم من لا يخالطه، كذلك فإن المرض يقع في الدار أو المحلة من ثوب أو آنية فالقرط يتلف من علقه بأذنه ويبيد البيت بأسره، ومن البيت ينتقل المرض إلى المباشرين، ثم إلى جيرانهم وأقاربهم وزائريهم حتى يتسع الخرق، وأما مدن السواحل فلا تسلم أيضا أن جاءها المرض عبر البحر عن طريق وافد من مدينة شاع عنها خبر الوباء"اهـ.

وهذا مستنبط من الأحاديث النبوية السابقة التي تأمر بالحجر الصحي على المصابين وغيرهم، مع عزل المصابين عن غيرهم، وعزل المكان المصاب (بؤرة انتشار الوباء)، مع مراقبة القادمين من أماكن انتشار الوباء...

والأحاديث الواردة في السنن الإلهية كثيرة جدا.

وقد رصد صاحب المنار هذا الجانب من جوانب عناية النبي ﷺ بفقه السنن وتوظيفه لها وعمله بمقتضاها فيقول: "إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان يعلم بإعلام القرآن أن للنصر في المعارك أسبابا حسية ومعنوية، وأن لله تعالى فيها سننا مطردة... وكان يعلم مع ذلك أن لله تعالى عناية وتوفيقا يمنحه من شاء من خلقه فينصر به الضعفاء على الأقوياء، والفئة القليلة على الفئة الكثيرة بما لا ينقض به سننه، وأن له فوق ذلك آيات يؤيد بها رسله".

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب لا هامة، ح5437. صحيح مسلم، كتاب السلام، ح2221.
(2) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب اجتناب المجذوم ونحوه، ح2231.
(3) مسند أحمد بن حنبل، 235/43.
(4) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب أجر الصابر في الطاعون، ح5402.

فعمل النبي ﷺ بمقتضى سنن النصر وواقع سيرته الغراء دليل على علمه ﷺ بهذه القواعد والضوابط المطردة التي تحكم السلوك البشري.

ولذلك كان ﷺ في كل أموره اليومية وفي كل أحواله في مكة والمدينة وفي الحرب والسلم، يقف مع السنن الإلهية؛ من أجل تسخيرها وتوظيفها في خدمة دين الله وعباد الله، وعند توقُّف الأسباب المادية يَمُدُّ الله نبيَّه بالسنن الغيبية (سنن التأييد الإلهي)؛ أي بما يعطل أثر الأسباب المادية لنبيه الكريم ﷺ بعد استفراغه وسعه وبذله جهده في تحصيل هذه الأسباب.

وفضلا عن ذلك فإن أحاديث الفتن غالبها فيما وراء أنها إخبار من الصادق المصدوق ﷺ، هي رؤية مستقبلية جاءت على سبيل التحذير وضرورة الإعداد لها، ومحاولة التخفيف من آثارها السلبية؛ وما أشراط الساعة والإخبار بأماراتها إلا رؤية مستقبلية تتطلب الإعداد والاستعداد بفعل المقدمات المنجية من هولها ونتائجها الضارة.

فهل تمنحنا هذه الأحاديث مؤشرات على أهمية امتداد التفكير إلى عالم المستقبل، والتبصر بعالم الغد، من خلال استشراف الماضي والسنن التي حكمته، وقراءة الحاضر والمقدمات التي تحكمه، لرؤية المستقبل وكيفية تشكيله والإعداد له؟

ثم، ألا يحق لنا أن نقول: إنه لا فقه ولا حياة منتجة دون استصحاب أبعاد الزمن الثلاثة: (الماضي، والحاضر، والمستقبل)؛ وإن إسقاط أي بعد من هذه الأبعاد التي تحكم حياة الإنسان عن ساحة النظر والتفكير تحت شتى الذرائع سوف يشكل انهداما واختلالا في مسيرة الحياة، وانحشارا في زمرة من وصفهم الله بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ (الحشر: 13).

ثالثا -عناية الصحب الكرام ﷺ بالسنن الإلهية:

لا يتوقف الأمر عند النبي ﷺ وحده بفقه السنن وتوظيفه إياها؛ بل إن الجيل القرآني الخالد الذي نشر الدين وفتح البلاد وهدى العباد إلى الله تعالى كان على وعي لافت للنظر ويقظة مثيرة للانتباه بهذه السنن المطردة. يقول الشيخ محمد عبده-رحمه الله-: "وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن، وعالمين بمراد الله من وراء ذكرها.

بمعنى: أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم، ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها، وبما منحوا من الذكاء، والحذق، وقوة الاستنباط، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى، ويهتدون بها في سياستهم للأمم التي نقلوا نور الإسلام إليها، وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض، وكذلك كانت علومهم كلها"اهـ.

هكذا سار الصحب الكرام على منهاج خير الأنام ﷺ؛ فقرأوا آيات القرآن الكريم قراءة واعية تمتثل سنن الله وتعتبر من دروسها وعبرها. وبقراءتهم للقرآن الكريم بحثا عن السنن واكتشافا لها تفقهوا فيها وكانوا على معرفة واسعة بها، كيف لا؟ وهم عاشوا مع رسول الله ﷺ كل مراحل التأسي والبناء، والتربية والجهاد، والهجرة والنصرة، والتبليغ والتدافع، والدعوة وبناء الأمة، فتمثلوا منهاج رسول الله ﷺ في الاستضاءة بنور السنن الإلهية في حياتهم،

والتفاعل معها وتسخيرها، والانتفاع بها في فتوحاتهم ودعوتهم؛ حيث لم يتمنَّوا الأمنيات، ولم ينتظروا اختراق العادات، دون بذلِ الجهود والمساعي والأخذ بالسنن.

لقد كان وعيهم ﷺ العملي للسنن الإلهية والتزامهم غرزها أول أسباب نجاحهم في حياتهم –الفردية والاجتماعية– وما أكرمهم الله به من النصر والتمكين والاستخلاف في الأرض، وتوحيد الكلمة وجمع الصف، وبناء القلوب، ونشر دين الله تعالى في ربوع الأرض كلها.

وإلا فلو خالفوا السنن الإلهية وتنكبوها لما تحقق لهم كل تلك الانتصارات في ذلك الزمن القصير، حتى صاروا أنموذجًا خالدًا في تاريخ الإنسانية كلها.

ولذلك لما حل الطاعون بالشام رجع الفاروق عمر ﷺ بالناس ولم يدخلها، فقالَ له أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ: "أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ! فَقَالَ عُمَرُ: "لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ! نَعَمْ **نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ**"[1].

وهكذا كان الفاروق ﷺ فقيها في السنن، وأخذ بسنن الأسباب للحفاظ على الناس من إصابتهم بالطاعون، وهذه نتيجة وعيه السنني، وهذا الفقه العمري نحن في حاجة إليه اليوم، مع انتشار وباء كورونا في العالم، فنحن في حاجة إلى المباعدة الاجتماعية، ولزوم البيوت، منعا من انتشار العدوى بين الناس، وحفاظا على صحتهم وأرواحهم، إذ الأمن الصحي مقصد عظيم من مقاصد الرسالة الخاتمة.

ولما رأى الفاروق ﷺ أناسا من أهل اليمن خرجوا مع ركب بدون رواحل وبدون زاد، فقال لهم: «مَنْ أَنْتُمْ؟» قَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ. قَالَ: «بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَّكِلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ» [2]، وهذه نتيجة كذلك تدبره السنن الإلهية في الحياة، وأن اتخاذ الأسباب لا يعارض التوكل على الله تعالى.

وكما يتجلى عمق فهم الصحابة ﷺ للسنن الإلهية، واستنباطهم الدقيق لضوابطها هذا الحديث:

قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ، عِنْدَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» فَقَالَ لَهُ عَمْرٌو: أَبْصِرْ مَا تَقُولُ، قَالَ: أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا: إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ: وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ[3].

فهذا النص يبرز مدى تعمق عمرو بن العاص في فقه السنن، فقد فهم من كون الروم أكثر الناس أنهم سيكونون أصحاب سيادة وتمكن وتأثير على العالم، وهذا هو الحاصل في أيامنا.. عندها أشار عمرو بن العاص من فهمه أنهم لا يكونون كذلك إلا إذا توافرت فيهم أربعة خصال وأضاف خصلة خامسة، وهي الخصال التي تحقق استمرارية الحكم لأي أمة تريد الحكم في الأرض... هذا الحديث مدرسة في السنن وتصريفاتها المتعددة.

لقد كان الجيل القرآني الخالد ﷺ على وعي تام بالسنن الإلهية؛ فاستوعبوا مقاصدها، وامتثلوها في حياتهم، فتحققت لهم السيادة والريادة، ففتحوا البلدان وفتحوا مغاليق القلوب، ودانت لهم الجبابرة والأكاسرة، ونشروا

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، ح5397.

[2] شعب الإيمان، للبيهقي، 429/2. مجموعة رسائل ابن أبي الدنيا كتاب التوكل على الله، ص50.

[3] صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، بَابُ تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ، ح2898.

الإسلام في ربوع الأرض كلها، وهكذا كان لتلك السنن الإلهية التي تفقهوا فيها وعملوا بمقتضاها أثر كبير في تشكيل العقلية الإسلامية التي استفادت من السنن الإلهية، ثم سخرتها فيما عاد عليها بالنفع والصدارة في الحياة.

رابعا: تجليات العناية بالسنن الإلهية عند المتقدمين والمتأخرين من علماء الأمة.

أولا- التصور السنني عند القدامى من علماء المسلمين.

إنه على الرغم من التطبيق العملي للسنن الإلهية في عهد النبوة والخلافة الراشدة، فقد كانت عناية علماء الإسلام بهذا العلم أقل بكثير من عنايتهم بأنواع العلوم الأُخر؛ الشرعية واللغوية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية.

ولا شك أنهم –رحمهم الله– لم يتركوا هذا الجانب الحيوي من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ دون بيان منهم أو إغفالا –وما هم بمعصومين– ولكن كيف يدعونه وهم الذين تفننوا في استنباط العلوم، وأوسعوها دراسة وبحثا، حتى أصبح كل من جاء بعدهم عيالا عليهم، إلا القليل منها، وكيف يغفلونه وقد فنيت أعمارهم فيما دونه من العلوم؟!

والحق أنهم لم يغفلوا علم السنن بإطلاق، كما يظن ذلك من يظنه فيهم، بل بيّنوه بما يتناسب والظروف التاريخية المحيطة بهم والمناهج العلمية المتبعة في زمانهم، عن طريق لفت الأنظار إلى السنن المبثوثة في القرآن الكريم، ومن يطالع التفاسير القديمة، بدءا من تفسير شيخ المفسرين الطبري ثم تفسير ابن عطية وابن كثير وابن حيان الأندلسي والآلوسي وأبي السعود والرازي والزمخشري وغيرهم، يقف من ذلك على الكثير من النظرات والإشارات المتفرقة هنا وهناك... أضف إلى كتب التفسير كتب التاريخ العام التي فيها إشارات قوية إلى أهمية التاريخ، وأوجه الاعتبار به، والاستلهام من أحداثه...

هذا فضلا عن جهود الكثير من فلاسفة الإسلام ومفكريه كابن الهيثم في كتابه (علم المناظر)، وجابر بن حيان في كتابه (علم الهيئة)، ومحمد بن إدريس الحمودي الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، وأحمد بن محمد مسكويه في (تجارب الأمم وتعاقب الهمم)، وابن سينا في (القانون)، والخوارزمي والبيروني وابن بطوطة وابن رشد الفيلسوف وابن الجوزي والشاطبي وغيرهم كثير.

وعليه؛ فإن جهود علماء الإسلام الأوائل لم تؤسس علما مستقلا يُعنى بعلم السنن على غرار العلوم الشرعية والعقلية الأخرى التي اجتهدوا فيها؛ تقعيدًا وتنظيرًا وممارسة.. فقد كان حضور هذا العلم ضئيلًا في مؤلفاتهم... وعذرهم في ذلك طبيعة العصر الذي عاشوا فيه، ومدى الحاجة إلى التوفر على مثل هذا اللون من الدراسات، عذرهم أنهم كانوا يعيشون في ظل أمة غالبة قاهرة قرونا من الزمان، فاشتغلوا بتفاصيل الأحكام ودقائق العلاقات، ولم تنحرف المسيرة التاريخية بهم بصورة واضحة كما هي الحال في القرون المتأخرة. ومثل تلك الأجواء لا تستثير النفوس والعقول عادة للعكوف على دراسة السنن على النمط الذي ننشده اليوم.

لكن رغم قلة المصنفات في علم السنن الإلهية، كان هناك ثلة من علمائنا الجلة اشتغلوا بعلم السنن الإلهية ونذكر منهم:

الإمام ابن أبي الدنيا(ت281هـ/894م). في كتابه النفيس "العقوبات" الذي أورد فيه جملة من أحاديث النبي ﷺ التي تتحدث عن سنن الله في هلاك الأمم وأنواع العقوبات التي حلت بها، ولا يقصد الإمام بالعقوبات،

العقوبات الجنائية وإنما يقصد بها السنن الإلهية التي ذكرها القرآن الكريم في قيام الأمم والجماعات وسقوطها، والجزاء الإلهي العادل الذي ينزل بها في الحياة الدنيا جزاء وفاقا على سلوكها.

بعد الإمام ابن أبي الدنيا ظهر الاهتمام بعلم السنن عند الإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي(ت456هـ/1064م)وذلك من خلال تأكيده القول بالطبائع وإثبات العلّية في الكون؛ أي أن الله تبارك وتعالى جعل لكل مخلوق في الكون طبيعة تتحكم بوجوده، ولا يمكن لهذه الطبيعة أن تتبدل أو تتغير أو تتحول، وجعل لكل حادث في الكون سببا مرتبطا به ارتباطا حتميا.

ومن علماء المسلمين القدامى الذين كان لهم اهتمام بعلم السنن الإلهية حجة الإسلام الإمام أبو حامد محمد ابن محمد الغزالي (505هـ/1111م)-رحمه الله- صاحب دائرة المعارف الفريدة والنفيسة "إحياء علوم الدين" الذي قسم العلم إلى محمود ومذموم، واعتبر علم السنن من أجل العلوم وأنفعها.

ولقد أكد الإمام الغزالي أهمية علم السنن الإلهية الذي عبر عنه بأفعال الله وصفاته وسننه وحكمته... واعتبره بحراً زاخراً يتطلب بذل الجهود والمساعي للبحث عن درره وجواهره ومكنونات أصدافه...

ومن العلماء الذي قد أسهموا في البحث عن السنن الإلهية ودعوة الأمة إلى العناية بها، الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (728هـ/1328م) -رحمه الله-. وهو أكثر السابقين إنتاجا واهتماما بالسنن.

سار الإمام أبو بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية(ت: 751هـ/1349م) –رحمه الله- على طريق شيخه ابن تيمية في العناية بعلم السنن الإلهية، فقد أثبت كشيخه مبدأ السببية في عالم الكون والحياة الإنسانية.

أضف جهود أولئك الجلة من علماء الأمة في خدمة علم السنن الإلهية والعناية بها، الجهد النوعي المتميز الذي أبدع فيه مؤرخنا الحكيم مؤسس علم الاجتماع والعمران عبد الرحمن بن خلدون (808هـ/1406م)–في مقدمته وتاريخه- في صورة علم الاجتماع والعمران البشري والذي أسس به لعلم سنني عمراني حضاري متميز، كان نقطة تحول عظمى في التعامل مع علم السنن الإلهية، والاشتغال به بصورة منهجية موضوعية...

ثانيا – البعد السنني في الفكر الإسلامي الحديث.

لقد ظل الفقه السنني تطويه الأيام والعصور حتى العصر الحديث حيث بدأ بعض علماء الإسلام يفكرون في هذا العلم وينبهون إلى أهميته ويحثون على الاهتمام به. ومن هؤلاء السيد جمال الدين الأفغاني (ت1323هـ/1897م) الذي انتحى في كتابة مقالات العروة الوثقى منحى يؤكد وقوفه على كثير من السنن الإلهية في الكون والحياة ونظام الاجتماع البشري وأسباب ترقي الأمم وسقوطها وقوتها وضعفها... ثم اعتنى من عاصره من تلاميذه ومن جاء بعده اعتناء فائقا بعلم السنن؛ ونذكر من هؤلاء الجِلَّة:

الشيخ محمد عبده حيث يعتبر الاهتمام بعلم السنن الإلهية أحد المقومات الرئيسة لمشروعه الإصلاحي النهضوي الذي استنبطه من القرآن الكريم. وما جاء في العروة الوثقى وفي مجلة المنار وما نقله عنه الشيخ رضا في تفسير المنار أكبر دليل على جهوده البارزة في هذا المجال.

وسار الشيخ محمد رشيد رضا في مؤلفاته عامة، وتفسيره (المنار) ومجلته خاصة، على منهاج الشيخ محمد عبده، فكشف في مؤلفاته عن الكثير من السنن الإلهية،

وفي نفس النسق يسير العلامة عبد الحميد ابن باديس؛ حيث احتل البعد السنني موقعا مهما في استراتيجيته، وكانت له آثاره البارزة في حركته التجديدية وفي توجيهاته وأساليب نشاطه. غير أن هذا التوجه يبدو بارزا بشكل واضح في دروسه التفسيرية التي تحفل بالتنبيه على هذا الجانب الهام

ومن الذين اهتموا بعلم السنن الإلهية العلامة أحمد المراغي في تفسيره القيم "تفسير المراغي"، وهو من التفاسير السننية الغنية بالحديث عن السنن الإلهية والنواميس الربانية من خلال الآيات القرآنية.

أما الإمام بديع الزمان سعيد النورسيُّ –رحمه الله– فقد أدرك أهمية هذه السنن الإلهية في بناء عالم أفضل، فوجه اهتمامه إليها؛ ليقرر أن سقوط الحضارات ونهوضها، وتقدم الأمم والمجتمعات وتخلفها، وتداول الازدهار والانحطاط بين الناس إنما يكون وفق السنن الحاكمة لحركة الكون وسير التاريخ وسلوك البشر.

وتابع سيد قطب –رحمه الله– الشيخ رشيد رضا في التنبيه على أهمية علم السنن الإلهية، ولفت الأنظار إليه، ومن يطالع تفسيره "في ظلال القرآن" يقف على عدد هائل من السنن الإلهية المستنبطة من القرآن الكريم.

ومن المهتمين بالفقه السنني الإمام الطاهر بن عاشور –رحمه الله–، في تفسير القيم (التحرير والتنوير). والعلامة محمد أبو زهرة –رحمه الله– في تفسيره "زهرة التفاسير" الذي يحوي إفادات كثيرة، ووقفات معتبرة عند آيات السنن، واستنباطات سننية سديدة. والعلامة محمد المكي الناصري–رحمه الله– في تفسيره "التيسير في أحاديث التفسير" الذي تميز بالشرح والتفصيل، والعرض الجيد للسنن الإلهية.

هذا فضلا عن إسهامات المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي (ت: 1393هـ/1973م) الذي أبدع في سنن النهضة وفلسفة الحضارة، ولفت الأنظار إلى قضية السنن في عديد من كتبه التي وضعها تحت عنوان: "مشكلات الحضارة"، ومنها: "شروط النهضة"، و"مشكلة الأفكار"، و"مشكلة الثقافة"، و"ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية"...

وسار على درب السابقين شيخ الدعاة محمد الغزالي –رحمه الله– في عنايته بفقه السنن وتنبيه الأمة عليه ودعوته علماء الإسلام أن يولوه اهتماما خاصا لمكانته.

ثم لحق بالسابقين الشيخ الشعراوي–رحمه الله– في تفسيره النفيس "الخواطر" الشهير بتفسير الشعراوي، تناول النص القرآني بأسلوب شيق وجذاب، منبها على سنن الله تعالى في الكثير من الآيات القرآنية.

ومن العلماء الذين لهم إسهام بارز في السنن الإلهية الشيخ محمد الأمين الهرري في تفسيره السنني النفيس: " تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن".

وعلى نفس النهج نجد العلامة محمد بن جعفر الكتاني في كتابه النفيس، الموسوم بـ:(نصيحة أهل الإسلام)، والعديد من المفكرين المعاصرين كإسماعيل راجي الفاروقي، والمهدي بن عُبود، ومحمد باقر الصدر، والمهدي المنجرة، وماجد عرسان الكيلاني، وعبد الحليم عويس، يوسف القرضاوي، وعماد الدين خليل، وعبد العزيز برغوث، عمر عبيد حسنة.. وغيرهم.

ومجمل القول: إن البعد السنني كان حاضرا في الوعي الجمعي للأمة، علما وعملا، وتنظيرا وتنزيلا، وفكرا وممارسة.. وما تركوه من مصنفات نفيسة ومشاريع إصلاحية هادية خير دليل على تفاعلهم مع الفقه السنني.

خلاصة المحور:

1

العناية بالسنن الإلهية في عهد النبوة والتنزيل

- القرآن الكريم أساس المعرفة السننية
- السنة النبوية مصدرا للسنن الإلهية وتجسيدا حيا لها.
- الخلافة الراشدة ترجمة عملية للسنن الإلهية.

2

عناية المفكرين المسلمين القدامى بالسنن الإلهية

- ابن أبي الدنيا
- ابن حزم
- أبوحامد الغزالي
- ابن تيمية
- ابن القيم
- ابن خلدون

3

عناية المفكرين المسلمين المحدثين والمعاصرين بالسنن الإلهية

المدرسة الإصلاحية: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا

المفسرون: سيد قطب، المراغي، ابن عاشور، أبو زهرة، المكي الناصري، الشعراوي، ابن باديس، الهرري، الزحيلي...

مالك ابن نبي: في إدراكه لسنن النهوض الاجتماعي والحضاري.

مفكرون معاصرون: إسماعيل راجي الفاروقي، والمهدي بن عبود، والمهدي المنجرة، وماجد عرسان الكيلاني، وجودت سعيد، وعبد الحليم عويس، ويوسف القرضاوي، وعماد الدين خليل، وعبد العزيز برغوث، وعمر عبيد حسنة..وغيرهم.

محمد الغزالي: حيث تزخر كتبه بالسنن؛ تحليلا واستنباطا، وقراءة للواقع واستشرافا للمستقبل من منظارها.

دراسات أكاديمية جامعية

المحور السادس:

فلسفة التاريخ بين التحليل المادي والتفسير السُّنني

لقد تنكر الماديون لكل ما له صلة بعالم الغيب، أنكروا وجود الله تعالى، وأنكروا أن يكون له أثر في تدبير شؤون الخلق، وأنكروا الوحي والنبوة، وأنكروا اليوم الآخر.. وبالجملة فقد أنكروا كل ما وراء العالم المحسوس أو عالم الشهادة، وكان من نتائج هذا الإلحاد تخبطهم في تعليل الظواهر الكونية، وتفسير الأحداث الاجتماعية والتاريخية، ويظهر ذلك التخبط في تلك النظريات المختلفة التي خرجوا بها على الناس وفي كل مرة يحاولون تفسير السنن وفق نظرية جديدة، فنسبوا سنن الله تعالى إلى الطبيعة، فقالوا عنها قوانين طبيعية تكونت عن طريق الصدفة. ثم كانت لوثة التحليل المادي للتاريخ في أواخر القرن التاسع عشر، والتي تعزي الظواهر والأحداث إلى حتميات اقتصادية واجتماعية وتاريخية.

لقد نبذ هؤلاء كل ما له صلة بالدين، فكان نتيجة ذلك أن نسبوا السنن إلى غير خالقها، فسموها القوانين الطبيعية[1].

يقول الإمام النورسي: "إن الصانع ذا الجلال وهو القادر على كل شيء هو نفسه خالق الأسباب، وخالق المسببات، وهو الذي يربط المسببات بالأسباب بحكمته سبحانه، وقد عين بإرادته طبيعة الأشياء، وجعلها مرآة عاكسة لتجليات الشريعة الفطرية الكبرى التي فطر عليها الكون، والتي هي قوانين الله وسننه الجارية التي تخص تنظيم شؤون الكون، وقد أوجد بقدرته وجه الطبيعة التي يقوم عليها عالم الشهادة الخارجي الوجود، ثم خلق الأشياء وأنشأها على تلك الطبيعة ومازج بينهما بتمام الحكمة"[2].

ذلك بأن الطبيعة هي شريعة إلهية كبرى أوقعت نظاما دقيقا بين أفعال وعناصر جسد الخليقة وأعضائها المسمى بعالم الشهادة. هذه الشريعة الفطرية هي التي تسمى بـ"سنة الله" و"الطبيعة" وهي محصلة وخلاصة مجموع القوانين الاعتبارية الجارية في الكون[3].

إن التاريخ في التصور القرآني مبني على سنن منظمة لا تحيد ولا تميل، ويتحرك وفق قواعد محكمة ومطردة... وهذه السنن التاريخية لا يحتمل العقل القول بأنه جاءت مصادفة أو عبثًا كما تقول نظريات المادية الملحدة التي رفضت أن تفسر الظواهر الاجتماعية والتاريخية الجزئية على أساس المصادفة أو التقدير ابتداء، وتحلل أحداث التاريخ تحليلا ماديا بعيدا عن النواميس التي يخضع لها[4].

ولذلك أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى السنن التي يخضع لها نظام الكون في سيره، والتاريخ في حركته فقال عز من قائل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (الأنعام: 11)، وألح على ذلك إلحاحا

---

(1) سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفه، ص107.

(2) اللمعات، ص286.

(3) المثنوي العربي، ص425.

(4) "التفكير السنني عند بديع الزمان النورسي"، يونس ملال، مجلة حراء، السنة السابعة، العدد: 30 (مايو-يونيو) 2012، ص12-13.

ما التفت المسلمون إليه، فتكرر الأمر بتدبر السنن عشرات المرات، بل وأبان بصريح العبارة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(النساء:26).

لكن البشرية أعرضت عن هذه الإرادة الربانية وخاضت في محول العقول فتاهت عن السبيل؛ فمنهم من يمثل الأحداث التاريخية نهرا جاريا بالحضارات يصب في بحر العدم، ومنهم من يتناول وظيفة الإنسان بصفته المحرك الأساس لعوامل الصراع في هذا الكون بغض الطرف عن أي مؤثر كان، ومنهم من يلغي أثر الإنسان وفاعليته ويجعله عبدا ذليلا للحتميات، وتعددت فروع هذه المدرسة فشملت كُلا من المدارس الآتية:

-**التحليل المثالي للتاريخ**: يمثله "هيغل" الذي يعتبر كل ما يحصل في "كل عصر أو فترة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثل وحدة مستقلة، وأن ملامحه السياسية والاقتصادية والأخلاقية والاجتماعية العامة والجمالية والعقلية والدينية كلها جوانب أو نواح للمجموع الحي Living Totality ومنها جميعا يتكون كيان متجانس. وإن كل فترة أساسية تنمي فكرتها الرئيسة إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها، ويستمر الصراع دائما، فتتحد المبادئ المتناقضة في وحدة عليا هي (الموحّد) يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى وينشب صراع جديد فيتولد حينئذ مرة أخرى موحد يحوي ما هو فعال من كل من الفرضية ونقيضها، وبهذا الأسلوب الثلاثي تتقدم الفكرة حتى نصل آخر الأمر إلى (المطلق) الذي نستطيع أن نبقى نتأمله إلى الأبد دون أن نتبين فيه أي تناقض"[(1)].

هذا، وقد نفى هذا التحليل "وجود قوانين عامة تحكم السلوك البشري، فلكل فترة تاريخية قوانينها الخاصة، ولكل ثقافة ديناميالها الخاصة"[(2)].

ونظرية هذا التحليل في عدم وجود نظرية عامة لحياة الفكر ، أو في عدم وجود قوانين عامة تحكم التاريخ مخالف للنص الصريح في تداول الأيام بين الناس: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾(آل عمران: من الآية 140)، ومخالف لسنة الله في التاريخ، ومخالف للمقولة الشهيرة في أن:(التاريخ يعيد نفسه).

- **التحليل المادي الجدلي(الديالكتيكي)**: يمثله "ماركس" و"أنجلز"؛ وهواة هذا التحليل يجعلون الإنسان تتحكم فيه المادة أو القوى الاقتصادية التي تنشئ الأوضاع الاجتماعية وتحدد العلاقات بين البشر، فلا فكاك عن الصورة الحتمية لتلك الأوضاع المادية والاقتصادية، فما على الإنسان إلا الخضوع لقوتها القاهرة.

هذا التحليل يقول بأن "تاريخ الإنسان يبدأ من بحث الإنسان عن الطعام، وإن الأوضاع المادية الاقتصادية هي التي تشكل فكر الإنسان وعقائده وأنماط سلوكه، وتحدد المؤسسات التي تقوم عليها حياته، وأن هذا كله يجري من خلال (الطبقة) ومن خلال الصراع الطبقي، في أطوار حتمية لا اختيار للإنسان فيها ولا قبل له بالخروج من محتواها"[(3)].

---

(1) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص23.

(2) الثقافة والتفسير الأنتربولوجي، تأليف: آدم كوبر، ترجمة: تراجي فتحي، مراجعة: ليلى الموسوي، سلسلة عالم المعرفة (349)، مارس2008م، ص62.

(3) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص14.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوي –رحمه الله-:"يرى "كارل ماركس" أن النظام الاقتصادي هو روح الاجتماع وأن الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها عكس لهذا النظام الاقتصادي (...).

وهكذا جحد جميع نواحي البشرية غير الناحية الاقتصادية ولم يعر غيرها شيئا من العناية، ولم يقم للدين والأخلاق والروح والقلب وحتى العقل وزنا وقيمة، ولم يعترف أن أحدًا منها كان عاملا من عوامل التاريخ، وأن جميع الحروب والثورات في التاريخ لم يكن إلا ثأرا لبطن من بطن، وجهادا في سبيل تنظيم جديد للنظام الاقتصادي وطرق الإنتاج الصناعي، وحتى الحروب الدينية لم تكن عنده إلا حروب الطبقات الاقتصادية استأثرت إحداها بموارد الثروة ووسائلها وطرق الإنتاج، واجتهدت الأخرى في أن تنافسها وتتناول قسطها أو أن تنظمها من جديد فوقعت الحرب"[1].

وقد اختار الكثير من الباحثين المحسوبين على الإسلام هذا المنهج المادي الذي ينظر إلى الأحداث بعين عوراء، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد منفعة: "إن المنهج الذي يتبناه أغلب (...) الباحثين هو المنهج المادي الذي يرى أن أسباب الحروب والأحداث الاجتماعية والسياسية في التاريخ ترجع إلى الجانب الاقتصادي، لهذا يقول هؤلاء على سبيل المثال، بأن الهدف من الفتوحات الإسلامية أو الغزو هو الغنائم، وليس الدعوة إلى الإسلام، وكذلك يرون أن الحكام المسلمين منذ الخلفاء الراشدين إلى اليوم حكام استبداد، وجمع للضرائب والأسلاب، وهذه الأحكام الاعتباطية أخذوها عن المستشرقين من يهود ونصارى حاقدين على الإسلام والمسلمين، وأنعتها بالأحكام الاعتباطية، لأنها لم تنتج عن طريق البحث والتحليل؛ لأن الباحثين الموضوعيين من الغربيين توصلوا إلى غير هذه الأحكام، وبذلك نفوا عن الفتوحات الإسلامية هذا الهدف المادي الذي ادعاه الحاقدون، وكذلك نفوا عن الحكام المسلمين، والخلفاء الراشدين خاصة، الاستبداد وحبهم لجمع الأموال...

ورغم كتابة هؤلاء الموضوعيين لهذه النتائج لم يأخذ بها المغربون، وإنما أخذوا بهذه الأحكام الاعتباطية لأنها تلائم منهجهم المادي الأحادي النظرة، والذي لا يدرس الحادثة في شموليتها وفي إطارها الزمني، وهذا الانتقاد يسري على جميع النظريات الغربية أحادية الجانب، فضلا عن أنها تسقط أحكاما خاصة بالمجتمع الأوربي، على المجتمع الإسلامي خاصة، أو المجتمع الشرقي بصفة عامة، دون الأخذ بعين الاعتبار خصوصية كل مجتمع على حدة"[2].

وهذا التحليل المادي الوضعي ناقص لأنه يتجاهل عوامل كثيرة لها أثرها في توجيه التاريخ؛ وعلى رأسها الفاعلية المتاحة للإنسان في الأرض، وفق سنن العمران والاجتماع البشري، ومشيئته وقدره الذي لا يلغي إيجابية الإنسان وفاعليته.

---

[1] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، ص270-271.

[2] في حوار له مع مجلة الفرقان الصادرة عن جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالأردن، في عددها: 83، السنة: التاسعة، بتاريخ:1429هـ/2008م، حاوره: رشيد كهوس.

- **التحليل الحضاري للتاريخ**: ويمثله المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي: منح هذا التحليل "القلة القيادية المبدعة دورا كبيرا في صياغة الأحداث اعتمادا على اتباع الأكثريات في الداخل (البروليتارية الداخلية) والخارج (البروليتارية الخارجية) ومحاكاتها لمعطيات هذه القلة"[1].

لكن توينبي دس في نظريته هذه وطعمها "بقيم مسيحية تمنح الإنسان والجماعة يقينا غير مسؤول بنظرية الخطيئة والخلاص، وتجرد الفرد، بشكل أو بآخر، من مسؤوليته الكاملة في صياغة مصيره من خلال إسهامه في الحدث التاريخي"[2].

كل تلك التحليلات مادية؛ لا تنظر إلا بعين واحدة، نظرة دنيوية عوراء أسقطت من حسابها الله واليوم الآخر، ومشيئة الله وقدره، وتجهل حقيقة ذلك الجانب المعنوي والروحي والغيبي: والوحي والنبوة والرسالة السماوية، وسنن الله المطردة.

وعليه؛ نكون خفافيش عمياء، وبلداء جاهليين، إن طفقنا نحلل التاريخ بمنظار التحليل المثالي أو الحضاري أو المادي الجدلي المعرض عن الله وسننه التي أقام عليها نظام الكون والحياة.

- **التفسير السنني للتاريخ**:

إن التفسير السنني لحركة التاريخ والمجتمع مثَّل فتحا قرآنيا غير مسبوق، فقد جاء مع النبوة الخاتمة حين بلغت الإنسانية الرشد، فأصبحت قادرة على الربط بين الأحداث والسنن الإلهية التي تجري وفقها الحياة، وقد كان الناس قبلها يلجؤون إلى تفسيرات وضعية عفوية أو خرافية استسلامية، وهذا الفتح القرآني في عالم السنن هو الذي مهد إلى تنبيه الفكر البشري بعد ذلك بقرون إلى محاولات التفسير العلمي للتاريخ.

وقد أتيح لخير القرون التعامل مع التفسير السنني بتلقائية؛ فأصبحوا في الصدارة، وقادوا ركب الحضارة، وكانوا أساتيذ الدنيا، وبتعبير القرآن الكريم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(آل عمران: 110).

ثم خلف بعدهم خلف أضاعوا ذلك الميراث، واتبعوا الشهوات، فمضت فيهم سنة الأولين، ففقدت الأمة فعاليتها، وانحسر شهودها الحضاري، ولم تعد تتبصر بالسنن التي تحكم الطبيعة والمجتمع، فأصبحت خارج التاريخ.

واليوم تبدو طلائع صحوة جديدة، وعودة إلى الذات ومحاولات لاستئناف الشهود الحضاري من جديد بفقه السنن الإلهية الطبيعية والدينية وبالتفسير السنني لحركة التاريخ والظواهر الاجتماعية والكونية[3].

إن التفسير السنني للتاريخ يستمد من المقررات الإسلامية عن الوجود كله، سواء الوجود الإلهي، أو الوجود الإنساني، أو الوجود المادي، وعلاقة الخالق بمخلوقاته، وعلاقة الخَلق بخالقهم، والسنن التي يجري بها الله أمر البشر وأمر الكون المادي سواء.

يختلف التفسير السنني للتاريخ عن كلا التفسيرين الغربيين (الليبرالي والجدلي) في نظرته المبدئية إلى الإنسان، ومن ثم يختلف عنهما في القضايا التي تتعلق بذلك الإنسان، والتي تكوّن في مجموعها تاريخه.

---

[1] التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص169.

[2] نفسه.

[3] ينظر: سنن الله في إحياء الأمم، شرفه، ص9-10.

وليس الخلاف بطبيعة الحال هو الخلاف في تحديد الوقائع التاريخية. فهذه عرضة لأن يقع الخلاف عليها دائما حتى لو اتحدت مناهج المؤرخين واتجاهاتهم، ما دام الكثير من مرويات التاريخ ليس قطعي الثبوت ولا قطعي الدلالة.

إنما الخلاف الرئيس —حتى في حالة الاتفاق على الوقائع- هو في أمرين رئيسين: تفسير الوقائع من ناحية، وتقويمها من ناحية أخرى. التفسير يتناول الدوافع، والعوامل المؤثرة، وطريقة تأثير هذه العوامل في مجرى الحياة الإنسانية، والتقويم يتناول الحكم على الإنجاز البشري في أية مرحلة من مراحله بأنه خطأ أو صواب، منحرف أو مستقيم، رفيع أو هابط.

فحينما يقول التفسير المادي للتاريخ إن تاريخ الإنسان يبدأ من بحث الإنسان عن الطعام، وإن الأوضاع المادية والاقتصادية هي التي تشكل فكر الإنسان وعقائده وأنماط سلوكه، وتحدد المؤسسات التي تقوم عليها حياته، وأن هذا كله يجري من خلال "الطبقة" ومن خلال الصراع الطبقي في أطوار حتمية لا اختيار للإنسان فيها ولا قبل له بالخروج من محتواها.

وحينما يقول التفسير الليبيرالي للتاريخ إن حب الإنسان للاستمتاع بطيبات الحياة ورغبته في السيطرة والاستحواذ، والصراع الدائر بين البشر على السيطرة والاستحواذ هو الذي يكتب التاريخ الإنساني، وينشأ عنه ما ينشأ من أفكار وعقائد وأنماط سلوك ومؤسسات من خلال الفرد أو من خلال الوجود الفردي في المجتمع..

فإن التفسير السنني للتاريخ يقرر أن التاريخ البشري هو تحقيق المشيئة الربانية من خلال الفاعلية المتاحة للإنسان في الأرض بقدر الله، وبحسب سنن معينة يجرى الله بها قدره في الحياة الدنيا.

ومن ثم فإن أعمال الإنسان كلها لها معيار رباني توزن به، بحسب تحقيقها لهدف الوجود الإنساني وشرطه أو عدم تحقيقها لها، ومن ثم يحكم عليها دائما في أي وضع من الأوضاع هي بأنها خطأ أو صواب، منحرفة أو مستقيمة..

وهكذا يفسر التفسير السنني أحوال البشر جميعا في رفعتهم وهبوطهم، وإقبالهم وإدبارهم، وإيمانهم وكفرهم، واستقامتهم وانحرافهم، بحسب ما بيّن الله تعالى في كتابه الحكيم وسنة رسوله الأمين ﷺ، كما يدخل في حسابه عالم الغيب وعالم الشهادة سواء[1].

وفي ضوء ما تقدم فإن هناك عاملين رئيسين يشكلان الفكر الغربي جملة، ويؤثران تأثيرا عميقا فيه، بوعي من أصحابه أو غير وعي، هما الداروينية من جهة، والنفور من الدين بسبب طغيان الكنيسة وتجبرها وحجر على الفكر من جهة أخرى.

هذان العاملان يؤثران في الفكر الغربي كله بدرجات متفاوتة، فيجعلانه يميل إلى إسقاط الدين من الحساب عند الحديث عن الإنسان: حياته أو فكره أو تاريخه، ويجعلانه ينظر إلى الإنسان على أنه نهاية خط التطور الحيواني، أي أنه يركز على قاعدته الحيوانية أكثر مما يركز على قاعدته الإنسانية الأصلية[2].

---

(1) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص12 وما بعدها.

(2) المرجع نفسه، ص12.

ولذلك فليست السنن الإلهية في المجتمعات والتاريخ من صنع ظروف المناخ أو البيئة أو الدولة التي تعيش فيها الأمة، كما يذهب إلى ذلك "أرنولد توينبي" في نظريته الحضارية، ولا هي ناتجة عن البيئة الاقتصادية ووسائل الإنتاج كما تزعم الجدلية المادية الماركسية، أو غيرها من الاعتبارات المادية أو الروحية مما تتعلق به التفسيرات الوضعية عادة، والتي تتفق جميعا في اعتبار الإنسان كيانا متغيرا؛ لأن الإنسان عندها مجموعة استجابات للفرضيات أو التحكمات التي تمليها، فالتفسير المادي للتاريخ يجعل تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام، والتفسير الجنسي للسلوك لدى "فرويد" يغرق الإنسان في الحيوانية، لأنه يفسر كل نشاطاته بالتفسير الجنسي، والتفسير الجثماني للمشاعر يفسر الإنسان على قاعدته الجنسية وحدها، على أساس أن "النفس" بمشاعرها وانفعالاتها وأفكارها مجرد انبثاق جسمي ينبع من الجسد ويحكمه الجسد.

وهكذا تتغير طبيعة الإنسان وكيانه تبعا للنظريات المطبقة عليه، فلا يعرف استقرارا أو ثباتا، ولا تستقر سوى حيوانيته التي تظهر بملامح صور شتى.

أما التفسير العلمي الحق للإنسان، فيذهب إلى أن كيانه لم يتغير منذ وجد، فالحوافز الإنسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منذ فجر الحضارة الإنسانية، والغرائز الإنسانية لم تزل باقية كما كانت على الرغم من أن مجال النشاط الإنساني قد اتسع، فالإنسان لا يزال هو هو كما برأه الخالق جل وعلا أول مرة، ولا تزال طبائعه وغرائزه وميوله هي هي لم تتغير، وهذا ما يشهد به المنصفون من الباحثين المتخصصين في علم الحياة –البيولوجيا– مثل "رينيه دوبو" الأستاذ بجامعة "روكنيلر" بنيويورك وأخصائي بعلم الحياة في كتابه: "إنسانية الإنسان"، وغيره من المختصين [1].

فإذا تقررت لدينا هذه الحقيقة العلمية وهي عدم تغير طبائع الإنسان وسلوكاته في سائر العصور، أمكننا بسهولة تصور عدم تبدل وتحول السنن الإلهية التي تحكم الحياة الإنسانية.

ومن ثم فإن التفسير السنني هو الوحيد الذي يعطي الصورة الصحيحة لحركة الإنسان كما هي في واقعها، والإنسان كما خلقه الله تعالى.

فهو أولا يأخذ الإنسان كله، بكل مكوناته، ويأخذه شاملا مترابطا لا مزقا وتفاريق، وفي الوقت ذاته لا يفسره تفسيرا تحكميا من خلال عنصر واحد من عناصره، كما أنه لا يقتطع حياته الدنيا وحدها فيضع لها تفسيرا مبتوت الصلة بالمنشأ والمصير، فهو يأخذ كائن متعدد الجوانب، مترابط الكيان في ذات الوقت، يتحرك بمجموع كيانه في واقع الأرض، فينشأ من مجموع حركته تاريخ.. لا هو تاريخ مادي فحسب، ولا روحاني فحسب، ولا فكري أو علمي أو فني أو حربي أو سياسي أو اجتماعي فحسب، بل كل ذلك في وقت واحد، على أصالة في كل جانب من هذه الجوانب، وترابط وتشابك في ذات الوقت.

ويأخذ حياته الدنيا غير منقطعة عن المنشأ والمصير. فهي موصولة بخلق الإنسان الأول من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، متأثرة بهذه النشأة التاريخية في كل جزئية من جزئياتها، وموصولة في ذات الوقت بالمصير الذي تؤول إليه في الآخرة، المترتب على كل جزئية من جزئياتها الحاضرة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

---

[1] ينظر: دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب، 2/228-229. سنن الله في إحياء الأمم، شرفه، ص148. تفسير التاريخ، عبد الحمدي صديقي، ص145. إنسانية الإنسان، رينيه دوبو، ص67.

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: 115). ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾(الزلزلة).

ثم هو تاريخ لا يجري بلا نظام. إنما تنظمه سنن ربانية جارية، سواء كان تاريخ فرد أو جماعة أو أمة أو دولة... ومن ثم يحمل معه في كل خطوة دلالاته كما يحمل معاييره.

وسنته تعالى لا تحابي أحدا ولا تتبدل ولا تتحول ولا تتخلف؛ ولكنها تجري من خلال أعمال البشر وبحسبها، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، وهكذا يكون الإنسان –من داخل قدر الله– هو الذي يقرر لنفسه حركته التاريخية، كما يقرر لنفسه مصيره في الآخرة، لا تقريرا منقطعا عن قدر الله تعالى كما يتوهم التفسير المادي الليبرالي، ولا مسلوب الإرادة أمام الحتميات كما يتوهم التفسير المادي الجدلي[1].

إذًا فلا مفر من التفسير الإسلامي للتاريخ الذي يعتمد سنن الله ضابطا ومقاسا، في ميزانها يضع كل حدث لتتبين أسبابه؛ فهو تفسير يستمد من رؤية قرآنية شاملة تعلو على الزمان والمكان، وتنظر بانفتاح تام إلى الأحداث، فهي رؤية واقعية وشاملة تمتد إلى الماضي والحاضر والمستقبل...

فسنن الاجتماعية هي التي "تسير حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطئ، وعبر مسالكها (المقننة) التي ليس إلى الخروج عليها سبيل؛ لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز وأخلاقا وفكرا وعواطف ووجدانا، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان، والذي يتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة الجغرافية أو الوضع الاقتصادي لكي تتسع للفعل التاريخي نفسه، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الإنسان والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلبا وإيجابا"[2].

وعليه؛ فلا منجاة لنا إلا باستيعاب سنن الله تعالى المطردة التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تميل ولا تحيد، تختلف اختلافا كبيرا عن التحليل الوضعي والمادي التائه في كهوف الكفر والضلال، وشتان بين سنن الله الربانية المصدر، والتحليل الوضعي والمادي البشري المصدر، فسنة الله الربانية المصدر لا تلغي فاعلية الإنسان وإيجابياته ولم تقهره على سلوك معين، بل يختار لنفسه ما يريد ثم يتحمل نتيجة ما يختار، لا عبثية في ناموس الله الكوني، قال الحق جل وعلا: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾(الكهف من الآية 29)، وقال جل جلاله: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾(الزمر: 15).

وبإجمال: فلا محيد لنا عن مواكبة الإرادة الربانية وسنن الله تعالى إن رمنا سبيل الرشاد ؛ لنتخذها مقياسا وضابطا تاريخيا نقيس به موازين سيرنا.

وهي سنن تشمل كافة مناحي الحياة بكبيرها وصغيرها، بكلياتها وجزئياتها؛ لذا صرح القرآن الكريم: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام: 38).

---

[1] حول التفسير الإسلامي للتاريخ، قطب، ص44 وما بعدها.

[2] التفسير الإسلامي للتاريخ، خليل، ص108.

فما من ناحية من نواحي الحياة والكون، ومجال من مجالاتهما، إلا وتناولتها السنن الإلهية في القرآن الكريم والسنة النبوية بالنص والفحوى، وميّزت فيها الخير من الشر، والصحيح من الفاسد، والحق من الباطل، والصدق من الكذب، والطيب من الخبيث، والغث من السمين، في صورة شاملة وكاملة لنظام الحياة في الإسلام الذي يجب أن يقوم على الخير وتنميته، وتجنب الشر والعمل على استئصاله.

هذا هو الفرق الجوهري بين التفسير السنني والتحليل المادي للتاريخ، وهذا هو التفسير السنني للتاريخ؛ "تفسير علمي موضوعي شامل ينفتح على كافة القوى الفاعلة في التاريخ، المنظورة وغير المنظورة، الروحية والمادية، الطبيعية والغيبية، وأهم ما فيه هو ذلك التوافق بين المشيئة الربانية المطلقة، وإرادة الإنسان واختياره"[1].

خلاصة المحور:

[1] سنن الله في إحياء الأمم، شرفه، ص106-107.

2
الاستناد إلى الداروينية والنفور من الدين.
إخضاع الإنسان للحتميات؛ التاريخية، الاقتصادية، الاجتماعية، المادية..
التفسير الغربي:
(مادي، ليبرلي، مثالي، جدلي، دارويني..)
قوانين التاريخ ناتجة عن البيئة الاقتصادية ووسائل الإنتاج وظروف المناخ والبيئة..
تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام، وإشباع الرغبات والنزوات..
التاريخ هو نتاج حب الإنسان للاستمتاع بملذات الحياة الحياة ورغبته في السيطرة والاستحواذ، والصراع الدائر بين البشر..

خاتمة:

تم هذا الكتاب بتوفيق من الله وعونه، وقد جاء على شكل مقدمات ومفاهيم وأصول في السنن الإلهية الكونية والاجتماعية، تعريفا بها، وإبرازا للفروق الوظيفية بينها، وبيانا لآثار مراعاتها، ورصدا لخصائصها وبواعث العناية بها، وجذور التأسيس لها وتجليات ذلك في مؤلفات المقدمين والمحْدثين، ثم مقارنة بين التحليل المادي للتاريخ والفكر السنني التاريخي.

كل هذا من أجل أن يكتسب طلاب العلم معرفة سننية مهمة، ويطلعوا على من خلال هذا الفكر السنني على أهميته في فهم التاريخ وإبصاره، ودراسة الظواهر والكونية والاجتماعية، وضرورته في الحياة المعاصرة.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّاۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

والحمد لله في البدء والختام والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا مُحَمَّد خير الأنام وآله وصحبه الكرام.

فهرس المحتويات:

مقدمة	2
المحور الأول: مفهوم السنن الاجتماعية والكونية والعلاقة بينها	4
أولا: تعريف السنن الإلهية	4
ثانيا: تعريف السنن الإلهية الكونية والاجتماعية	8
ثالثا: العلاقة بين السنن الاجتماعية والكونية والفرق بينها	11
1- العلاقة بين السنن الاجتماعية والكونية	11
2-الفروق بين السنن الكونية والاجتماعية	14
المحور الثاني: آثار مراعاة السنن الإلهية الكونية والاجتماعية	25
المحور الثالث: بواعث العناية بالسنن الإلهية	30
المحور الرابع: خصائص السنن الإلهية:	35
المحور الخامس: العناية بالسنن الإلهية: الجذور والتجليات	54
المحور السادس:فلسفة التاريخ بين التحليل المادي والتفسير السنني	64
خاتمة	73

AL MAHAD-UL-AALI AL-ISLAMI
ليتفقهوا في الدين
المعهد العالي الاسلامي حيدراباد
HYDERABAD - INDIA

فريق البحث في السنن الإلهية
كلية أصول الدين تطوان